زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: لا تفلت يدي
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام

الطبعة الأولى 2018 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع: 2018/7399
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

لا تفلت يدي

زهير أبو سعد

مقدمة

الكاتب: زهير أبو سعد

العنوان: لا تفلت يدي

نهضة الإبداع ما زالت مستمرة وعطاء هذه الكاتب لا ينتهي رصيده، لقد نسج الكاتب زهير أوراق بيضاء مليئة بالحزن منقوشة بأحرف تمركز الحداد فوقها بحبر أسود قاتم اللون الذي ارتدينه منذ ولادة جانيت التي ولدت بين دفتي القدر في مهد اليتم أو على سرير الخطيئة لترمى في زنزانة دار الأيتام..... في أحضان الجلادين التي لم تزرهم الرحمة قط.....

فما ذنبنا نحن ليتنقل بنا الكاتب زهير في أرجاء ورقه في الحزن الباذخ الممزوج بنكهات لا تخلو من مرارة الواقع.... لينقلنا من الهروب إلى أطفال منسية خلف جدران الملاجئ الى حياة البراعم التي تفتحت دون ألوان، الى مدينة الأشباح التي سكنتها الملائكة الى دكتاتورية القهر.....

ليلة ظلماء قضيتها بين بصيص الألم بين أسطر إزدوجت رؤيتها عندما امتلأت عيناي بعبرات تجمدت أبت أن تنزل خوفاً من جبروت جانيت وخوفاً من استهزائها بي وأن أظهر ضعفي أمام قوتها المحصنة بسقراطية فكرها وتمرد شخصها على الحياة .تلك التي رفضت العيش تحت سقف العبودية والاستحقار، هي التي أنكرت أديان عاشت على تراتيل التسامح والطهر والعفاف المزيف، والصلوات الربانية ملحدة للإنسانية . لبؤة هي وقفت أمام القهر وكتبت على سبورة الظلم (نحن قطيع من الإناث الكاذبات والقيم، ووجهنا الآخر له حكاية أخرى عنوانها، الخشية ممن حولنا ومن ذاتنا) عبارة كتبتها بتمردها لتحول حروفها الى لجام ألجمت به أفواه البشرية المستوحشة على الضعفاء، أودت بها نحو الحرية والإستقلالية الذاتية ، لقد سرد الكاتب نموذجاً أنثوي وقف بشموخ على منبر الرجولة التي اختبئت خلفها فتاة نامت أحلامها على وسائد وأسرة الأمل. لا تفلت يدي رواية قطعت أذرعنا فعجزنا حتى أن نكفف دموعنا التي كنا نرثي بها جانيت أو بالمعنى الأدق حين أجبرنا

الكاتب أن نرثي إنسانيتنا التي تهافتت خلف الشكليات والمظاهر وعالمنا المليء بالغرور والتظاهر وحب اليتيم وكفالته للتباهي بالإنسانية في أجواء الطبقة المخملية بأموال زائدة بجيوبنا أو شيك بنكي لتوقيع ورقة التبني ليمارسوا بعض العقيمين أنانية المشاعر بالأمومة أو الأبوة ليستمر هذا الأمر على مدار اليتم.....

بينما كانت جانيت تتأوه من الألم على سرير ناصع البيضاء كان المكان الأرقى بالنسبة لها مكان ليس فيه لون رمادي كسقف تلك الزنزانة التي أمضت محكومية بؤسها فيها حينها أدركنا من الكاتب زهير أنا لسنا فقط بحاجة الى سكن كسته الأسقف والحيطان ..... بقدر ما أدركنا أن السكينة أهم من السكن، واستقرار الروح أهم من استقرار الجسد.....

لا تفلت يدي تلك آخر جملة كتبتها للحب الذي اقتحمها في آخر محطة لها، في آخر قطار ركبته صدفة مع ذلك الوسيم الذي ارتشف معها الجرعات الكيميائية بفنجان واحد من أيد تشابكت أصابعها ببعضها للمرة الأخيرة، هل كان إخلاص

لها أم إخلاص لليتم الذي جمعهما دائماً يتركنا الكاتب في دوامة أسئلة مكسوة بالحيرة.....

كنت أسأل نفسي على ماذا كان يبكينا الكاتب زهير على اليتم، الضياع، الحب، أم المرض، لا بد أن نبكي هذه المرة على أنين الكمنجة تحت جسر الدانوب لنودع الملاك (المتمردة هذا كان لقب الملاك) الذي طار الى السماء حيث النقاء حيث الطهر رحلت جانيت باكراً لأن الملائكة لا ينسبها كوكب الأرض.

شروق المسالخي

إهداء

إلى تلك الأكف المُشبعة بالحب

التي لا تعرف الكذب ولا الخيانة

التي أمسكت بقلوبنا ذات وجع ، فأجتثها الموت على حين غيرة ، فأبكتنا وأدمتنا في آنٍ واحد ..

اسمي جانيت ..

اسمي مُركب من ذَاتي ، أحملُ اسمي فقط ، لا أُريد إيةَ إضافة خَارجية كَانت أو دَاخلية إلى اسمي ، أَكرهُ أولئك الذين يُمجدونَ آباءهم و أجدادهم و هم فارغون إلى قعر قدميهم ..

لو سَألتَهُم ماذا فعلتم في الحياة سَوف يقولون لك كَان أسلافنا و أجدادنا و أهلونا عمالقة في فَنٍ من الفُنون ، و رُبما من عائلة دكتاتُورية ، و لكن حُب العظمة أفقدهُ صوابهُ و جردهُ من ذاتهِ و و سدَ ثغور فشله بقوم أفناهُم الزمان تحت التُراب..

هُم الواقفونَ على السراب ، الفارغون من محلول الإستناد على الذات ، أُحبُ ذَاكرتي بكلِ تفاصيلها و لكن الوعكات التي تتتالى عليك بين فينة و فينة تفقدك السيطرة على مقود الدرب الذي رسمته في مخيلتك رغم وعارته ..

لا زلت هنا خارج حُدود الخيال ، أحرسُ كبريائي من المُتطفلين لأن الحياة أنجبتني من فرج السماء و ألقت بي في ميتمٍ كُل جدرانه و ممراته و وجوهه من راعيات و راهبات

و أولاد يشبهون بعضهم ، إنه البؤس ذاته ، لا شيء هنا مختلف حتى لون الماء الذي يأتينا من عالم الغيب ، و حتى الطاولات المستطيلة ذات الطول الذي يجتمعُ على ضيافتها خمسين طفلاً أولئك البؤساء الذي غدر بهم قدرهم و جمعنا اليُتم هُنَا تَحتَ سَقف طلائه ذو اللون الرمادي الفاتح ..

هكذا المكان تشعُر بأنه باهت ، قد توقفت عليه الشاشة الزمنية بين العقرب الأسود و الأبيض ..

نَحنُ ضحايا خيانات ، الجميع قد تمتع بركلنا هُنَا و هَنَاك و لكأننا عبءٌ على هذا الكوكب ..

أنا جانيت ..

ذات الأربعة و العشرين ربيعاً ..

فارغة من كُل شَيء العائلة الأصدقاء الناس ..

دائماً أضع المسافات بيني و بين بني البشر ، أتهربُ من سهامِ أسئلتهم المُتراشقة من أفواههم ، أعيشُ حول دوامة من الأفواه و الكلمات التي لا تتوقف ، الجميع هُنَا مُتعطش ليسمعنا صوته و غنائه و صخبه و فوضاه و هتافه و رأيه

الذِي يصدر من أفواه البشر ، يا إلهي ما الذي يحدث على سطح هذا الكوكب !؟ ..

لا أحد يهدأ هُنَا ، لا أحد يحب الصمت ، و إذا سألت أحدهم لماذا أنت حزين ، الجواب سهل جداً ..

إن صديقنا الحزين بحاجة إلى أحد يسمعه .. تعبت من سماع كل شيء و من صخب هذا الكوكب ، دائما أنت التي تسمعي و جميع من حولكِ يحددون مصيرك بآرائهم و أفكارهم و معتقداتهم و حتى كذبهم إن هؤلاء الناس الذين إتخذوا من أنفُسهم دور الناصح الأمين بحاجة إلى أحد لينصحهم ، لأنهم لفيفاً من المُتطفِلين الذي يسعون لإسقاطك..

أغبياء .. أكرههم بشدة لا توصف ..

أُحبُ صَوت كلبتي التي لقت حتفها في حادث قطاري أليم ، أحبُ صوت مذياعي الذي قدمته جارتي المسنة لي بمناسبة يوم ميلادي ، إنها الأشياء الصغيرة و فلسفة الحياة التي لا بُدَ أن تنصت لها ، لأنها في الحقيقة هذه الأشياء الصغيرة

هي الشيء المُتمم لك .. لتكونِي سعيدة في البداية يجب أن تقولي للشيء الذي لا تحبيه : لا ..

هذا الرفض الذي مكون من حرفين ، تَختمي به تطفل الآخرين ، أنت بحاجة لطاقة المظلومات اللواتي مشين على درب مفروش بالزجاج المحطم ، امشي على الدرب الذي تريدين و أنا متأكدة بأنكِ ستسعدين ..

ضحكت بيني و بين ذاتي عندما أعادتني الذَاكرة إلى أول أيام الجامعة في العاصمة فيينا ، فلقد كفلت مصاريفي البسيطة رجل عجوز يدعى السيد ويليم ، لقد تقدم ليكفل أحد الأيتام فكنت من نصيب كفالته ، في الحقيقة صحيح بأنني لم أره و لكنني كنت ممتنة له لأنه أخرجني من هذه المقبرة الممتلئة بالأيتام ، ليس إنتقاصاً من قدر الأيتام لأنني جزء من ذَاك المجتمع الخالي من فيتامين الحنان لكل شيء ..

و في دخولي إلى عالم أروقة الجامعة ، كانت تسوقفني بعض كلمات الإعجابِ أو دعني أقول لك بعض ألفاظ التحرش ، لم يكن لدي تلك الطاقة التي يطلقون عليها خجل الإناث ، لأنني بعد ثمانية عشر عام و أنا خلف قضبان

الإكتئاب الذي إعتدت عَليهِ ، فَقدتُ إحساسي الداخلي في كُل شيء ، و كُنتُ قد عقدتُ مع ذاتي صَفقة مصالحة ، و أن أتخطى حدود الهُدوء في أي شيء يضايقني ، لأنني أنثى مُذ أن فتحتُ عيني على هذه الحياة لم أرَ منها خيراً قط .. !!

في اليوم الثالث في الجامعة ألقى أحد الفتية على مسامعي كلمة تميلُ للتحرش ، قال لي وقتها :

ـ هل تخرجي معي هذه الليلة ! ..

مع العلم أننا لا نعرف بعضنا البعض .. كان الجواب قاس جداً ، لقد صفعتهُ على وجهه ربما كُسر فكهُ ، و لم يُروى غليلي أبداً فرميتُ بجمِيع جَسدي عليه بعدما أوقعتهُ أرضاً منهالاً عليهِ بالضرب و الصفع ..

لم أتوقف عن الضرب لأن وتيرة الجنون كانت مُرتَفعة بالنسبة لي و الضغط السابق الذي أخذ مني حيزاً من صدري أخرجتهُ في هذا الفتى ..

حاول الطلبة أن ينقذوا الفتى من بين يدي و لكنهم لم يفلحوا حتى أنقذته المرشدة النفسية في الجامعة ، كان صوتها مرتفع جداً عندما صرخت :

ـ أيتها القذرة لقد قتلتِهِ ، أفلتيه ..

تَركتهُ ، و لكنني سمعتُ آهاته و آلامه و تأوهه و كان جميع الطلبة ينظرون إلي كيف صدري يرتفع و ينخفض بكل جُنون ..

كَان ملقاً على الأرض ككيسِ قُمامَة ، و ما وقفتُ حتى تَفلتُ في وجهه ، و لم أنتهِي لأن تلك المرشدة أهانتني ، نظرت إليها صارخة في وجهها :

ـ عندما تفتحون جامعات لهؤلاء الحشرات أحسنوا تربيتهم قبل أن تطلقي علي كلمة قذرة .. هَل أنت مرشدة نفسِية ! ، لا أعتقد ذلك ، لا أعلم من بحاجة لإرشاد نفسي يا أُستاذة ..

نفضتُ ثيابي ، و تركتُ لها ظهري و تركتها لإندهاش عيون الطلبة و صدمتها ، كَانت تصرخُ بأعلى صوتها لأنها شعرت بالإهانة :

ـ أيتها الطالبة تعالي إلى هنا .. عُودي .

هكذا بدأتُ حياتي ..

ثمانية عشر عاماً من الذُل و السمع و الطاعة في تلك الدار المفرغة من كحل الحنان ، هي الجدران وحدها كانت تعلم ما بي من خنقة قد طاف خناقها ما فوقَ المعقول ..

ليس من المعقول أن تتلقي الأوامر طلية سنين طفولتكِ ، و تعيشي في غرفة تنام بها خمسة عشرَ فتاة ، كنتُ أحلم أن أنام في الغرفة الغارقة بالفتية ، و لكن القانُون الغير مَنطقي فوق الجميع ..

سَألتُها تلك التي إتخذت من نفسها أُماً لي في دارٍ محرومين بها من كلمة أُمي :

ـ لماذا تفصلوننا عن الفتية عندما نذهب إلى النوم ! ، و حتى بيوت الخلاء التي يذهب إليها الفتية تختلف عن الأماكن التي نخرج بها فضلاتنا !! ، و لماذا نُمنَع من أن نُبدل ثيابنا أمام الفتية كما يفعلون أمام بعضهم البعض ..

إحمر وجه المُربِية و أمسكت غيظها و قالت :

ـ هذا الأمر ممنوع هنا و فقط ..

كُنتُ في العاشرة من عُمري ، أتحدث مع ذاتي و أتساءل ، لو كان لي أُم هل يا تُرى سوف تُجيبني كهذه الأجوبة !! ..

لقد إكتشفت الشجاعة مُنذُ الصغر ، و كَانت جميع المُربيات و الفتيات يتلافين أسئلتي المخيفة ، و دائماً كَانت تَقول لي المُربية :

ـ عزيزتي جانيت أتمنى أن تُطلقي لي أسئلتك الغريبة بيني و بينك فقط ، لا أُريد أن أستمع لعقدك أمام بنات المتيم .. حسناً !! ، أتمنى أن تتفهمي هَذا الأمر !!

لم أقبل تلك الأوامر التي تلقيها علي من غير أن تُقنعني بالخطأ في هذه الأسئلة ، رُحتُ أرُد عليها بعُنف :

ـ لماذا أنتِ خائفة من هذه الأسئلة !! ..

لقد إزداد التعقيد في النقاش ، كنتُ أعلم بأنها لا تمتلك الإجابة أبداً ، و مع صغر سني كُنتُ أُلقِي على المُربيات سهاماً من الأسئلة التي لا تتوقف ، و جميع المربيات و المدرسات كُن دائماً يتهربنَ من الحقيقة ..

كُنتُ أعلم بأنَ ذَاكَ اللفيف من كومة النساء عبارة عن خراب مُرقع بالخوف و الجبن و من المُحال أن يصلح للتربية ..

بعد أن وصل سني إلى بداية أول ألمٍ للحيض ، كَتبتُ شَيئاً كُنتُ أُخطط لهُ في دماغي و قناعة وصلتُ إليها ..كَتبتُ كلماتٍ على سبورة الفصل الدراسي قبل دُخول المُعلمة التي كانت تُلقي علينا دُروس الجغرافِية جملة أفقدتها صوابها :

نَحنُ قَطيع من الإناث الكَاذبات ، نَختبئ خلف الأخلاق و القَيم و وجهنا الآخر لهُ حكاية أُخرى عُنوانها : الخشية ممن حولنا و من ذاتنا ..

كانت مُعلمَة الجُغرافية دكتاتُورية في المعاملة ، و لا تقبل الخطأ أبداً و دائماً كانت أنواع عقوباتها قاسية جداً ، كالطرد من الفصل و تنظيف الفصل في آخر الحصة و إهانة الطالبة أمام جميع الطلبة و كان كلامها قاسي جداً و لا أحد يُفلت من لسانها ، فلقد كانت جميع الفُصول مضبوطة على حَسب ساعة يدها و تدير المدرسة جميعها بنظرة واحدة ، لقد كُنتُ جريئة جداً عندما كتبتُ تلكَ العبارة على السبورة

التي يجب أن تكون نظِيفة قبل دُخولِها إلى الفصل ، كانت نحيفة جداً و عُمرهَا يُناهزُ الخمسين عاماً و عُروق وجهها واضحة جداً و خُصوصاً تلك العُروق التي على جبينهَا ، ترتدي فُستان ما تحت الرُكبة و على وَجههَا نَظاراتٍ طبية عريضة الإيطار و سميكة العدسات ، و دائماً تَحملُ مسطرة تضعها بين دفتي كتاب الجُغرافيا الذي تضعهُ تحت إبطها ، كُنتُ أحب قوتها و لكن كُنتُ أكره هَذه القُوة الكَاذبة التي لا أعتَقد بأنهَا في مكانها ، بين القوة و تفاهة الصمت نضجتُ من الطَاقة التي قدمت لي إياها مُعلمة الجُغرافِيا ، ممنوع الحَديث في درسها و لا الأسئلة بلا إذن و لا الحركة و لو تسطيع أن تمنع الأوكسجين لمنعتهُ ، كان الفصل عبارة عن قَبر مدفون به ثلاثون فتاة خرساوات ..

دخلت إلى الفصل يومها ، و وقف جميع من في الفصل كالمسامير بقامات ممشوقة و وجوه باهتة و صمت مُرعب ، نصحتني صديقتي سَارة أن أمسح ما كتبت على تلكَ السبورة و لكنني أحببت تجربة التمرد ..

أمسكت المُعلمة مجداف نظارتها و وجهت عينيها الغائرتين إلى الأحرف التي على السبورة ..

لا زال الفصل واقفاً و لم تأمر أن يجلسن الفتيات أبداً ، كانت درجة السُكون في تلك اللحظة تسعة و تسعين مئوية.. كأننا نجلسُ في فضاءٍ آخر ، و كان الخوفُ يتضح على ملامح الفتيات ، و لكنني مع إبتلاع ريقي في اللحظة الأخيرة قلتُ في نفسي ماذا سوف تصنع !! ، هل كلمة الحق ستقطع عُنقي !! ..

و لتقطع عنقي لن أهتم ، لأننا كفتيات ميتمٍ نعيشُ على هامش الحَياة ، كترهاتِ القدرِ نجني مآسي حُب أُناسٍ كان يُطلقُ عليهم أهل ، و اليوم يُطلقُ عليهم وَهم ..

تباً للحياة إذاً ..

لقد هَبطت يد المُعلمة من بعد أن أفلتت شفتيها ، رُبما صُدمت بمَا كتب على السبورة ، و ارتخت يدها التي كانت تُمسكُ بها النظارة و لكنها سقطت من يدها ، كان صدى وقوع النظارة يتطاير فوق القُلوب لأن الرُعب الذي حدث يفوق أي رُعب ..

إستدارت إلينا بوجهها النحيل ، و بصوتٍ لا يشبهُ صوتهَا ، إنها تَعري الحقيقة التي كُتبت على السبورة ، إنها لحظة إثبات أن تكوني قوية في أية سُؤالٍ سيوجهُ إليك يا جانيت :

ـ التي كتبت هذا الكَلام فلتخرُج ..

كَان صوتها مُجرد من الدكتاتورية ، يزحفُ إلى مسامعنا و لكأنهَا تلكَ المُعلمة ليست المُعلمة التي نعرفُها ..

شددت قواي ، و رميتُ بضفائر شعري خلف ظهري ، و مشيت على درب القوة أحملُ ثقتي بنفسي لمواجهة تلك الخمسينية التي جلبت لهذه المدرسة الرُعب ، الآن هي أنا التي تَمشي ، تلكَ الفتَاة التي أردتُ أن تُشبهني ، لا أُريد أن أُشبه هَذا الرَهط من إناث هذا الكون ، و لا أُحبُ التقليد و التصنع المُتكرر للخوف و الخجل و الحياء المُنافق ، كُنتُ أنا و لا أحد غيري تسير بجسدها المُثَقل باليُتم تَجرُ بكُليها أرضاً ، كانت هذه الأرض لي أنا فقط ، لأنني هززتُ تلكَ المَغرورة التي تتخفى بقوتها خوفاً من السُقوط ..

أنَا هي ..

التي أُريد أن أتصالحَ معها ..

لأنني أنا هي و لا أحد غيرهَا ..

أُريد أن أُشبهني ، و أقفُ بجانب ذاتي ..

سئمتُ تلك العُملة القذرة المُتكررة التي يُطلق عليها خجل الإناث ، تلك التي تطلق على نفسها بأنها الخَجولة المَائعة المُميعة التي تَجلبُ لها هذه الصفات فارس أحلامهَا ..

طُز ..

تَباً للرجال بكافَة طَبقاتهم و مناخاتهم التي تجعل من المرأة حرباء تبدلُ ألوانها على حسب مزاج المُحيط الذي حولها ..

أذُكر قبل عيد رأس السنة بأسبوع طُلبنا إلى غُرفة الثياب و الأحذية في الميتم ، و قد حضر الجَميع إلى ذاك المخزن ، كُنَا نَعرف بإنَ هُنَاكَ ثياب جديدة قَد جُهزت لنَا بمناسبة العيد ، و في هذا الوقت من كُل عَام كُنا نُخير في اختيار الفُستان الذي نُريدهُ و الحذاء الذي يعجبنا ..

كانت الأحلامُ على مقاس يُتمنا ، و كانت ملامح وُجوهنا تُثير الشفقة ، و أما خطواتنا فكانت مضبوطة على حسب بيعنا لمن أراد أن يتبنى طفلاً ..

كان الأطفال يختفون شيئاً فشيئاً ، كانت كُل واحدة منا تَعلم بأنها في أية لحظة سوف تحمل حقيبتها و تختفي ، و لكن إلى أين ، إلى حلم يُدعى عائلة ..

كُل الفتيات في تلك اللحظة اخترن ما يليقُ بأنوثتهن ، و كانت عيناي مُعلقة على ثياب الذُكور ، و كُل الإناث غارقات في وحل الفساتين و الأحذية االلماعة ذات الكعب العالي ، إلا أنَا كُنتُ أنظرُ إلى الغبيات كيف يتصارعن على أن يحضين على قطعة من القُماش تليقُ بلون بشرتهن ..

لقد اخترتُ حذاءً لماعَاً ذُو جلد كالمرآة إن نظرت إليه سوف ترى وجهك فيه من شدة بريقهِ ، ذُو كَعب مُربعٍ عريض ، كُنتُ أُحبهُ لأنهُ يصدر صوتاً صَاخباً ذُو طقطقة ثَابتة ..

كُنتُ أرتديه دائمَاً ، و عندما أمشي في مررات الميتمِ ، كانَ كُل الذين يمشون في الممر يقفونَ على شَفيرِ قُلوبهم من صوتِ الرُعبِ الذي يدُب بكعبهِ الصاخب في الفناءِ الضيق

، كُنتُ و ما زلتُ أثقُ بنفسي و بأفكاري و بتفرُدي على جميع من في الميتم ..

سوف يقولُون لك بأن التمرد هُو نقص في دَاخل الإنسَان هُوَ الذي إكتشف حيثياته ، و بتمردهم على المُجتمع الذي حَولهُ يُريد بهذه الحركة أن يسُد تلكَ الثَغرة و يُلفت الإنتباه ..

سَوفَ أقولُ لكَ بأنَ هَذا الكَلام لا يُعممُ على الجمِيع ، إنَ التَمرُد على مُجتمع مُتقوقع يقدمُ أُنَاس على أُناس آخَرين هَذا لَعمري الفضيلة التي دَعت إليهَا الحُرية ..

التَمرد الذي يُولدُ من الكَبت هَذا تَمرُد المَطلُوب و المَرغوب ، و إنَ العَبيد الذينَ رَضوا بالظُلم هَذا شَأنهُم ..

كُنتُ أمشي بين المقاعد الدراسية ، كانَ التوتر قد طَفى على وُجوه الطَالبات الغَبيات السَخيفات ، كُنتُ سَعيدة وقتها ، لأنَ جميع الوجوه كَانت ممشُوقة إلى السَماء ، و الخَوف قد قَطع منهُنَ إرباً ، ، لَقد وَقع في نَفسي بأن هذه الهَامات رُفعت لتتمردُي على أُنثَى أخرى من سُلالة النساء اللواتي تُخبئُ أُنثى خَائفة زائفة مُتلونَة خَلف وجههَا ..

وَصَلتُ إلى منصَة السبورة حيثُ تَقفُ تلكَ المُعلمة ، و نَظَرت إليَّ نظرة تَقدحُ شراراً و الشر بين عينيها ، ، و كنتُ أنظرُ إليها التي لا ترى أمامها سوى قُوتها ، رفعت المُعلمة ساعدها اليُمنى لكي تلطم وجهي ، و لكن أمسكتُ يدها و نترتها من وجهي ، لقد أسقطتُ خوفي منها و من أي إنسان يريد أن يُحجم حُريتي ..

هذا اللَوحُ لي ..

و الطَبشُورُ لي ..

و الكَلمات و العبارات و الخيالات هي لي ..

لم تتحمل غباءها تلك المسكينة التي إرتدت ثوب الدكتاتورية على عقلها حتى أفقدها صوابها ، جَرت على الطَاولة التي تضع عليها الخيزرانة ، كانت تلسع الطالبات الغبيات على جلدهن حتى يُعلم على بشرتهن آثار تلك الخيزرانة ..

فبعد أن رَكضت و جلبت الخيزرانة رفعتها لكي تضربني بها ولكن أمسكت يدها و شددتُ عليها حتى كادت أن تُفلتَ من يدهَا الخَيزرانة ، و لكن أمسكتُ الخيزرانة و دفعتُ بالمُعلمة بكُل قواي حَتى أردَيتُهَا طريحة لأحد الجُدران ،

شهقت المُعلمة شَهقة من الصَدمة و لكن أنَا أُريد أن أكسر حدةَ الجبروت التي تُمسكها بيدها في كُلِ يَومٍ و تُرعب بها قَاعاتِ الصفوفِ المَحشوة بالأيتامِ ، أمسكتُ بالخيزَرانة و كسرتُهَا أربع قطعٍ أمام الطلبة و تحتَ دهشة الطلبة رميتُهَا أرضَاً ، و قُلتُ لهَا :

ـ إذا كُنتِ تَعلمتِ الظُلم من الحَياة فَنحنُ أشَدُ جَوعاً للظُلمِ من هَذا اليُتم الذي نعيشهُ في دَاخل هَذه المَقبرة ، و إذا سُحبت منكِ الرحمة ، فيا بُؤسَ غَضبنَا إذا وقع على قُلوبنَا ، أنتِ وحدكِ هُنَا في هَذا المَيتم و نَحنُ جَمعٌ غَفير من الفتياتِ المُتوجعَات اللواتي رضين بحظهنَ من هَذهِ الدُنِيا ، كُنتُ أتمنى أن تَترُكي بَصمة خَيرٍ يَذكُرنكِ الطَالبَات بخير ، و لَكن طَفحَ الكَيل ، و لا مَجَال للمُزاودة هُنَا ..

جُنتَ المُعلمة من صَراحتي مَعَها ، و لَكن كَانَ هُنَاكَ من الصَمت ما يَقول لي أَخرجي جَمِيع غضبكِ إنهَا فُرصَتكِ لإخمادِ قَهرِ جَميع الطَالبات في جَميع الفُصولِ الدراسية ، لم تتحمل صَراحتي رَاحت تَصرخُ :

ـ يا لي وقاحتكِ أيتُها الطَالبة !! ..

كَانت المسَاحة لي كي أرُد عَليهَا :

ـ صَراحتنا تُصبحُ وقاحة إذا حَكم علينَا هذا الزَمان مُعلمَات كَأمثالكِ ، يَجبُ أن تَحفظي حُدودكِ ، و يَجب أن تعلمي أنَ جَميعَ الطَالبات هُنَا يَكُننَ لكِ كُرهاً من الصعبِ أن تُحصيهِ..

إنها هي إذاً ..

أُريدُ أن أُشفى من الصَمتِ ..

ذَاكَ الكَبت الدَاخلي الذي طوى مني سنيناً تحت قُبة الميتم ، كيف لكِ أن تَصمُتي يُتماً تَحتَ نيران هذا المكان ، و ماذا سَيفعلُ بي !!

المَوت مَثلاً ..

جَميعنُا على يقين بأنَ الموت شراً لا بُدَ منهُ ، و كَيفَ لو كَانت هذه الحياة التي تعيشينها عبارة عن تَابُوتٍ تُمضي صباكِ فيهِ و أنتِ تَقتاتينَ فيه على مَشاعر الآخرين ..

إن هذا المكان عبارة عن مأوى للنفاق ، و خُصوصاً عندما كان جَميع الفتَيات يعلمن بأن هُناك يوماً للتبني ، ما أجمل النفاق و ما أَقبحَ اليُتم ، في تلكَ اللحظات الغَير إنسَانية كَانت تَدخُل علينَا كَبيرة المُربياتَ السيدة هَيرن زوجة رَجُل الأعمال الكبير السيد ماريو صاحب أفضل متاجر ألبسة في أوروبا الشرقية ، كَانت طَويلة القَامة و نَحيفة كعود الخَيزران ، كُل يَوم تَأتي بفُستانٍ من القُماش الباهظ الثَمن ، و عقدٍ من اللؤلؤ تكاد لا تَخلعهُ ، و خاتماً من ذَهبٍ صَافٍ

عَليهِ حَجرٍ من زَبرجدٍ شرقي ، كَانت خُطاهَا ثابتة مُدربة على الرُعبِ و التَسلُطِ و لَهَا شَفتَان لا تُشبهُ الشفاه نحيفتان حد الذوبان و حتى حد الهذيان ، كيف كانَ يُقبلُها زَوجهَا رَجُل الأعمال لا أعلم ..

و لكن كُل الذي أعلمهُ بأنهُ اسَتيقظ بعد غَفوة الحُبِ و وَجد على مَقرُبة من وسادَته أُنثَى على شَاكلةِ قَصبة .. كلما شاهدُتها كاد قلبي يسقُط من صدري ضحكَاً ، كانت تحليلاتي في مكانها عندما ذكرتُ لصديقتي التي تُجاورُ سريري ، و أُحللُ لهَا الشخصيات المريضة التي تَتولى أمرُنَا في هَذا المكَان الغَير عَادي ، سألتني وقتهَا :

ـ ما رأيُكِ بالمُديرة التي تتولى أمر هذا الميتم !! ..

كُنتُ قبل الإجابة آخذُ نفساً عميقاً ، حتى أُهيئ ما يجولُ في خَاطري من خفايا :

ـ السيدة هيرن شخصية مُتناقضة جداً و عندها عُقدة النقص في جميع حركاتها ، الإنسانية مفقودة لديها ..

قاطعتني صديقتي :

ـ و لكن يا جانيت الميتم لا يضعُ أحد مديراً على رقابنَا إلا إذا كان كامل المُواصفات بإنسانيتهِ ..

لم أتحمل غباء من حولي من فتيات يتيمات قتلهُنَ الحنين و الشُعور بالنقص العاطفي ، قاطعتُها كالتي أرادت أن تُدافع عن أفكَارهَا :

ـ عزيزتي ، تَقصدي كَاملَ المالِ و الأرصدة البنكية ، أفيقي من هذه الغيبُوبة العميقة أيتهَا الغبية ..

كانت الطَالبات تهابُ لسَاني لأنني صريحة و خارجة عن المألوف ، أقصد عن حياء الفتيات و الخَجل و التصنع الغير مُجدي من أجل جلب الحُب و النصيب ، كانت قاعدتي في ما يُسمى عالم الأنوثة إن لم يأتني الحُبُ حافياً ، فلن أذهب إليهِ زاحفاً ، كَانت هُناك لسعات في أحشَائي تقول لي : يا غبية إن لم يأتك الحُبُ لا حافياً و لا مرتدياً و لا لاهثاً ! ، فَماذا فَاعلة بكرامَتكِ ..

فليقُل عني المُجتمع الناعم و مرتادات محلاتِ التَجميل و الميك آب و صالونات الحلاقة بأنني غبية على أن أصل

درجة من السنين مع رجُل يدوس كرامتي و أقول يومها بيني و بين نفسي يا ليتني تزوجتُ حائطاً و كنتُ تراباً .. لا عَلينَا ..

لن أندم على أمرٍ فَعلتهُ يوماً ، و لكن سيقتلني الندم إن اتبعتُ عواطفي الأنثوية في لحظة حبٍ أو لَحظة عَاطفية تقودني إلى الجُنون ..

كَانت تَدخُل إلينا السيدة هيرن و تقول يجب أن تَتبرجن يوم غدٍ بسبب نهاية الشهر و بابِ التبني مفتوح على مصراعيه ، و التي لا تسمع و لا تُطيع و لا تلتَزم بلباقة الضُيوفِ سوف ترى شيئاً لا يُعجبُهَا أبداً ، هل فهمتُنَّ !! ..

في كُل نهاية شهرٍ كُنَ نَجتمعُ في قَاعةِ الإجتماعات لنستمع إلى آخر التطورات التي وصل إليها الميتم ، كُلنا أيتام الكَلمات و العَبارات ، و ضحايا الإنصاتِ لمُديرة الميتمِ .. كَانت الشَفقة تلفُ حول وحدتنَا كأن كُل من يجلسنَ تحتَ قُبةِ المُحاضرة عبارة عن قطيع من الماعز يُجهزُ للنحرِ ..

من سُلالةِ النَحرِ نحنُ ، بكُلِ وشَاياتِ الانطواء ، نبحث عن أشباح عائلة تخرجُنا من هذا الجحيم الذي يطلقُ عليه ميتم ،

إن هذهِ العائلات كحصالة النُقود لا تعلمُ صاحبتُها ما بهَا من أموالٍ أو أحلامٍ أو أوهامٍ و على الأغلب ما فيها من عفنٍ ..
عندما تَخطبُ بنا تلك التي سلّم القدرُ لنا رقابنا و تُعلن عن يومِ التبني ، تخرجُ روائح النفاق من الفتيات و حتى من المُعلمات و المربيات ، إنهُ النقص الذي أفقدنا التوازن الداخلي ، و إن لم تُصدق بأن هذه العُقدة تجتاحُنَا بنهمٍ كَنارٍ تلتهمُ غابة عامرة بالأشجار المنقوعة بالنفط ، فعليك أن تدخُل إلى أقرب عيادة لأحد الأطباء النفسيين و ترى كيف الطوابير عامرة بالجماجم التي سطا عليها الوهم ..
كُل الصَبايا ترى التَوتُر على تضاريس وجوههن قد أخذ الخَوفُ منهن مكاناً واضحاً ، و تبدأ عمليات التجميل ، و البهرجة و تمتلئ الحمامات بالأجساد المحمومة بالشهوة و تغرقُ الوجوه بالكذب و الألوان و الشعور تُغرقها الأصبغة أحمر و بني و كستنائِي و أسود و هلمَّ جَرا ..
و يأتي ذَاك اليوم الذي اكرهُ فيه جميع من فيه مُبتدئاً بمُديرة الميتم مُنتهياً بعاملات التنظِيف ، جميع الخُزن شاغرة

فارغة من الفساتين و من وُجودِ صُويحباتهنَّ ، و أمَا القاعة نسوا أن يَكتُبوا يافطة فوقها :

لم تتركُوا للنفاق شيئاً و رفقاً بأنفسكُم يا قوم ..

و قَد نسيتُ أن أقول لجدُران ذَاكَ المكان :

لا تُخاطب من مات قلبهُ و جعلَ من المُراوغة دستوراً للخُروج من عالمه ..

جميعُنا يشعُر بالنقصِ ، و لكن لا تَسُد هذا الغباء بغباءٍ أكبر منهُ ، كلنُا بحاجة إلى أبٍ يُربتُ يدهُ على رَأسنا ، و أُمٍ نلتحفُ حُضنها عند كُلَ مَطبٍ مُؤلم ما نُقاسيهِ من هذه الحياة ، و لكن !! ...

كُنا في تلك اللحظات ..

كدجاجِ الحقل نُعلفُ لنسمن ..

و نساقُ إلى المسالخ ، و لا تعرفي من سيبدأُ بأكلكِ ، كَانت تتوافد علينا جُموع المُتبنين من كُلِ حدبٍ و صوب ، و يتهافتون بثيابهم ذات المارَكات العالمية ، يتجسسون علينا بأعيُنهم التي لا تَنام ، و يُقلبون ملامحنا على مهلٍ ، فيهم من قلة الحياء ما يسدُ جوعَ العالم و يُخرس الأفواه ..

و لكن كُنا مطية للتعنيف إن لم نلتزم بمراسيم التمثيل و التصنع أما هذه الطبقة التي تشتري الأطفال بأرقامهم البنكية لا بحنانهم العاطفي ..

رُبما هُم مثلنا ..

لهُم عُقدة النقص كالعُقدة التي نعيشها ..

لم يرزقوا بأطفال ، و لم يستمعوا لأحدٍ يقول لهم أبتي أو أُمي ، أحلامهم قادتهم على هذا المكان يسدوا شُقوقَ عطشهم لأصابعٍ ناعمة يُطلقُ عليها أبناء ..

رُبما لديهم إنسانية زائدة عن أولئكَ الذين يقتنون القطط و الكلاب ..

كانت أحلامي لا تتجاوز صخب هذه المدينة التي قطعتها سكك القطارات التي تسير فوق الأرض و تحتها ..

نعم أنا هيَ ..

أنا هي تلك التي لم تكتمل أُنوثتها ، و لا أعرف من جسدي سوى السراب و الانصهار مع زئبق الحياة ، أنا هيَ التي كان أكبر أُمنية لها أن يكونَ عندهَا قطة بيضاء تعودُ إليها و تَحنو عليها إن زادَ فيها إكسير الوجع من الوحدة ..

نعم موجوعة حد الغثيان و الخروج من إطار هذا العالم ، موجوعة أمام كل الجُدران و لو وضعتِ لي جداراً من إسفلت لحطمتهُ و جعلتهُ غباراً ، هنا في هذهِ البُؤرة لا مكان للوجع ..

تتقاسمينَ معهُ غباءَ من يعشنَ معكِ رُغماً عن أنفكِ ، فَقط لأنكِ ضحية كَبقِية الضحايا التي يتلظينَ لحنانِ عائلة ..

كُنا نُساقُ إلى كنيسةِ الميتم كالحمقاوات ، نرى تلكَ الآلهة المُعلقة على خشباتٍ موهومة عقولنا الفارغة من أي اعتقاد أتانا لحمل مواجعنا ، كم وقفتُ أمامَ جسده المُغطى بورقِ الذهبِ و نطقتُ في وجههِ أيُعقل أن يحمل مواجعنَا و ذُنوبنَا

صنم ، ما هيَ قمَة الحماقة التي ارتديناهَا و توارثناهَا من غَير أن نُعطي للعَقلِ قيمة ..

تَباً لهُم و لموروثهم العَقيم ..

كانت تدخُل إلى مدرسة اللاهوت و أنا جالسة في الكراسي الخلفية في كنيسة الميتم ، أنظُرُ إلى جسدٍ طَوتهُ الأوهام يُقال عنهُ آلهة لا يسمع و لا يتكلم و لا ينطُق ، أتانا وحيهُ عبر نافذة الأوهام كَي نُريحَ العقلِ من التفكير في تكوين هذهِ الأرض و مصدرِ تطويرهَا ، أراهُ مُعَذب على صَليبٍ خَشبي كبير لا يستَطيع أن يُخلص ذاتهُ الإلهية ، قد أغلق عينه و بطنهُ المَثقوب قد نَزَل منهُ طلاء أحمر يُهمونَ مسَاحة غبائنَا بأنها دمَاء ..

كُنتُ ألقبهُ بالأحمق ، و الذينَ اتبعوهُ أشدُ حَماقة ، كَيفَ يعبدونَ رباً لا يستَطيع أن يُخلص جسَدهُ من الصَلبِ ، هذا لَعمري آلهة لا تستَحقُ أن تُشكر ، بَل عَليها العار و الويل لمن لجأ إليها ..

كانت تلك المُدرسة تجلسُ بجاني تعتقد بأنني أُؤمنُ بذاكَ الجَسَد المصلوب ، و لكن كُنتُ آتي إلى هذا المكَان لأُريح

أُذُناي من ثَرثَرةِ الأيتامِ و أحلامهُنَ التي لا تُسَاوي قشرة بيضة و كُل واحدة منهُنَ تُطلُ على إطلالة مُختلفة و تَتحدثُ من أَحلامهَا و جُنونهَا ..

كَانت تَقول لي تلك المُدرسة :

ـ أنَا سعيدة بَكِ بُنيتي ، أراك تأتين إلى هُنَا دائمَاً ، كم سَعيد الرَبُ بكِ و بقُدومكِ ، كم كُنتُ أتمنى أن يأتينَ الطَالبَات إلى هَذا المكَان كمَا تأتينَ إليه كُلَ يَوم ..

أول مرة تَتحدث معي في حَضرة الهُدوء ، كُنتُ أؤمنُ بِالهُدوء و الصَفاءِ و النَقاءِ و وحدَةِ الحَالِ مع ذَاتي ، كنتُ و مَا زلتُ لا أُصَدقُ مَا يُلقى عَلينَا من مُعتقداتٍ و كَلامٍ مُطولٍ عن الله ..

نَظرتُ إليها بشحُوبةِ طفلة طَابت في عينيهَا الحَياة و اليتم و من فيه و من عليهِ و من يُؤمنُون بهِ ، شَعرتُ بأَنَني لا بُد أن أَقتص و أُقاضي ذَاك الإله الذِي سَحب منا أجمل ما لَدى الإنسَان ألا و هي العائلة ..

ـ سَيدتي تَعتقدي بأنَ السعادة هُنَا !! ..

شاب في وجههَا التعجُب :

ـ بُنيتي إن لم يَكن هنَا السَعادة في حَضرةِ الرَب ! ، فأينَ ستكون إذاً !! ..

الآن دَوري في القَصف كما كَانت تَقول لي جارتي التي بجَانب سَريري في الغُرفةِ التي أَنامُ بهَا :

ـ سَتكون بالصدق و استخدامِ العَقلِ و المَنطقِ و الخُروج من هَذهِ الخُرافَات التي أشَبعتُنَ الفَتَياتِ بَربٍ لا يَملكُ أن يُخلصَ نَفسَهُ !! ..

كادت الدماء أن تَخرُج من عُروقِ وَجههَا ، و العَرقُ يتَصَببُ من جبينهَا كَأنهُ مَطرٌ و قد هَطل ، كَادت أن ترفعَ يدهَا لتصَفعني على وَجهِي ، و لَكنني كعادتي ، هذا الوَجه لا يُلطم ، اللواتي يلطمنَ هنَّ صَاحبات العُقول اللواتي يُطلقن على أنفُسهنَّ نَاقصَاتِ عَقلٍ و دين ..

يا لغباءِ الناسِ ، لا تَستطيع مُنَازلة أحدٍ لسانياً ، و ما إن عَجزَ عن الرد حتى رفع كفهُ يُريد أن يَهوي بهَا على وَجهِ مُجَاريهِ .. !!

أُريد أن أكُونَ أنَا ..

أَنا هيَ تلكَ الفتَاة التي تُريد أن تَخرجَ من شَراشفِ السمعِ و الطاعَة ، لا أعلم ما هُوَ نوع الأعلاف التي تَأكُلها المُجتمعات التي سَلمت عُقولهَا لمُغتَصبيهَا ، و خُصوصاً النسَاء ، بتُ أسألُ عَقلي دائِماً :

هل يُؤثر العَلف على الدواب و يُعيد للمُربي الضَعف ضعَفين من مُنتجَات !! ..

عليكَ أن تَسأل حاكماً دكتَاتُورياً أُلقي القَبض عليهِ من قبلِ الشَعب سوفَ يَعترف مَا هُوَ السُم الذِي كَانَ ينثُرهُ على مَسَامعِ الشَعبِ المسكين ..

لا أعتَقد بأنَ الأعلاف لهَا تَأثير سلبي على البشَر كَبقيةِ الحَيوانَات ، و لكن و صَلتُ إلى مَرحَلة من التَنقيب عن تَقبل الإنسانِ للمُحيط الذي حَولهُ ، ألا و هُو الخَوف ..

بدايةَ أية خرابٍ دماغي أو جَسَدي أو عاطفي هُوَ الخَوف ، يبدأُ الخوف يتسَلل بطُرقهِ الشتى منذُ الولادَة ، تَخرُجينَ من تلكَ الفَوهة الضَيقة التي تَتسَربُ منهَا القَاذُورات ، لا

تَخرُجينَ حُباً يا حلوة ، بل دَفشَاً و رَفساً غَصباً عن أبو أبوكِ..

أهَلاً و سَهلاً بَكِ عَبرَ خُطوطنَا الوَطنية الجَوية في مَزارِ الترويض ، ما أجملكِ من طفلة يا حلوة ، الكُلُ ينظرُ إليكِ بعيونِ الثَعالبِ المَاكِرة ، يَنهَشونَكِ بِنَظراتهم و حمَاقَاتهم ، يَلفونَكِ بابتسَامَاتٍ تَدلُ على فَرحهم بقُدومكِ ، الكُلُ حَولكِ يلهَثونَ و حَامدونَ و شَاكرونَ الخَالق على هَذهِ الأُعطية و الهدِية ، فَيا تَعاسَتكِ ..

أنتِ الآن مُنهَكَة أليس كذلك !! ..

مَعكِ حق يا حبيبتي ، نامِي جَيداً ، غَداً سَوف تُعمَدينَ في مياهِ الكنائسِ و يُطلقُ عليكِ اسماً لا يُنَاسبُ لَونَ عَينيكِ و لقاَمَتكِ الرشيقة يا لرشاقة التعَاسَة المُقدَسَة ، نَامي و لتَكن أَحَلامكِ على مَقاسِ خَوفكِ ..

تَبدأ مراسيم الخَوف ..

اسم يُطابقُ خوفهُم بأحرفٍ مُدججة بالرُعبِ ، يُحبُهَا الرَب يَكرَهُهَا أعداء آلَهةِ أبويكِ ، يا مسكينة مَا الذي يُصنعُ بكِ!!..

لا شَيء فقط تحَديد مَصير ، و إجبارَكِ على انتعَالِ وراثَة الخَوفِ رُغماً عن أنفكِ ، و بَعدهَا يَأتي دَور التعميد ، كُنتُ أتساءل هَل كُل الذينَ عُمدنَ قَبلكِ عشنَ حياة سَعيدة !! ..

إنهُ رهَان الزَمان على أهلِ الخَوفِ بأنَ الدين لَيسَ لهُ أية صلة أخَلاقية أبداً ، فَالأخلاق تَنبتُ مع الإنسان من التربية المنزلية أو المُجتمع الحُر المحيط بهِ ..

كل شيء منذُ الصغَر يَقول لي تَحرري من الخَوف ..

تَمردي على قَوانِين الأهواء و الخُرافات التي يَخشاهَا الناس الذين يزعمون بأنَ عَلاقتهم مع الرَب صلة عَالية و برُتبة ضَابط شَرف يَحمى حمى الله ..

يَقولونَ لكِ بأنَ كُلَ شَيء لهُ حكمة ، يا حكيمة أنتِ ، و يَسدونَ تلكَ الشُكوك بأحَاديثٍ و حكاياتٍ قَد رَسمَ مُؤرخوهَا و أبطالهَا بمُخَيلةِ الأجيالِ ، و الرَب خَط أحمر عَليكِ أن لا تَقربي حُدودهُ ..

بتُ أسأل نَفسي هَل الرب لهُ حُدود !!

إن كَان لهُ حُدود حقاً إذاً سَيكون نُفوذَه قَاصر ، و هناكَ من هُوَ أعلى منهُ شَأناً و قدراً و عظمةً يَتصرفُ بعجزهِ و خَوفِهِ..

دَائماً أتساءل !

هَل هَذا الكَوكب وجد لتَتَصارع عليهِ أكثر من مئةِ آلهة عَبر عَشراتِ القُرون التي مضت إلى عصرنَا هَذا ..

و جَميع من يتصَارعِ يَعرفون الحق من الباطل ، و لكن الجميع يَخاف أن تُسَحب منهُ هَويتَهُ الدينة ، تَباً لهُم و لدينهم الذي أورثنا دماءً لا زالت تَسيل و تَتَقاطَرُ إرهاباً ، و طَبعاً لا أستَثني ديناً كَان ، الكُلُ يُريد القَضاء على الطَرف الآخر بحُجةِ نصر الآلهة ، و لكن أيُهَا الأغَبياء إنَ كَانت الآلهة تَغارُ على دينهَا لماذا لا تُرينَا عَضلاتهَا و تَنتقم لنفسهَا !! ..

لا أحَد يَستطَيع الإجابة عن هَذا السُؤال ، لأنكَم جُبنَاء و تَركتُم مكَان التسَاؤل كلمة و عُذراً و جواباً أحمق يَقول :

إنَ الآلهة لهَا حَكمة ..

نَعم هَذا صَحيح ، و الأصَح من هَذا الهُراء بأنكَ أنتَ أيضاً لكَ مَسَاحة من الغباء و التَشتُتِ العَقلي مَا يَجعلُ عَقلُكَ يَتفُلُ في وَجهكَ !! ..

كُل شَيءٍ لا يحرم هُنَا ، لأنَكَ أنتَ دمَاغ و عَاطفة و أحَلام و حتى جسم مُركب على خَوفِكَ من البشَر لا من الآلهة المزعومة التي صَنعهَا البشَر ..

سَألتني صَديقتي المُجاورَة لسَريري ذَاتَ لَيلة غَابَ فيهَا كَابوس الغَباء و حَضَرَ فيهَا طُوفانِ العَقلِ :

ـ عَزيزتِي جانيت لماذا نَحنُ عندما نُخطئ في حَقِ الربِ يَجب عَلينَا أن نَذَهب إلى أبانَا الذي في الكَنيسةَ كَي يُخلصنَا من ذُنوبنَا ..

لقد كَانَ السُؤال في مَكانه :

ـ صَديقتي لأنَنا أغَبياء ، هل الآلهة بحاجة إلى واسطة كَي تغفر الذُنوب ! ، و هل الآلهة بحاجة لعَودتنا إليهَا كَي تَرضى ، و ثقي تماماً بأنَ آلهة تَغضب لا تَستحقُ أن تُعبد ..

و مَا معنى أن تلكَ الكَلمة !!

العُبودية !!

مَا أغبانا !!

ـ هَل نَحنُ أغبياء حَقاً !! ..

ـ لا يا صديقتي !! ، نَحنُ لسنَا أغبياء أبداً ، لقد تبرأ منا الغباء منذ زَمنٍ طَويل و هَمسَ في عُقولنَا المَسدودة بقُطنِ الخُرافات :

لَقد لَوثتُم سُمعة الغَباء يا قَوم !! رفقاً بالأغبياء ..

ضَحكت صَديقتي التي لم يَصلهَا من كَلامي سوى طَريقتي التي كانت تقول لي عنها ، ما أجمل طريقتكِ في تَشخيص هذا العَالم يا جانيت ، فعلاً إنها تُشعرني بالسَعادة .. !!

فَصيل من البَشرِ بحَاجة إلى الضحكِ و لكن لا أحد يُريد أن يتغير ، و لو دققتِ معي جيداً لعُدنَا إلى مَاهَيةِ الخَوف من النَاس ..

أنَا هُنَا تلكَ التي يُطلق عليهَا ضَحايا الخوف من الفتيات بلقب :

المُتمردة ..

إلى الآن و أنا أبحث عن العلة التي تَمردُت بهَا ، لأنَني وَقفتُ ضِدَ الحَياة و البَشَر و الخَالق !!

هل هذا تَمرُد !!

لا أبداً ، إنهُ العَودة إلى العَقل و المَنطقِ ، و السباحة بعكس تيار العادة و التَقاليد و هَلُمَ جَرا ..

لم أكُن أعَلم بأنني يوماً من الأيام سَوفَ أُعتَق من تلكَ الدَار القَذرة التي حاولوا أن يَجعلوني كَعُلبةَ السردين أُعلبُ و

أُخللُ من مَصَانعِ مَياتمهم ، و لَكنَ الصدفة اختارت لي أن أخرج من هَذه القوقعة الصدئة التي تُخرجُ فتية عُقولهم منومة مَغناطيسياً تَحتَ التأثير العَقائدي ..

أنَا هي إذاً جانيت ..

ذَات الشَعر الأحَمر و العَينَانِ الخَضراوان الواسعتان ، و على خَدي بَعض من نمشٍ مَنثور كَانت تَقولُ لي مُعلمة المُوسيقى عن رُذاذِ النَمشِ المُتنَاثر بأنهَا مَيزَات و منحة من الخالق في الجَمَال ، لا تَنزعجي يا جانيت !! ..

و مع أنَني لم أشَكو لهَا و لا لغيرها عن ذَاكَ النَمش لأنني لا أهتمُ بتلكَ الجُزئية الخافتة التي يتَسابق عَليهَا الفتيات ألا و هي واجهاتِ الميك آب !!

أشَعُر بأن التي تُغَطي وَجهها بالمسَاحيق و التي تُغرقُ شعرهَا بالأصبغة و التي تخفي لونَ عَينيهَا بلاصقٍ عدسي بأنهُنَّ جباناتٍ خائفاتٍ خافتاتٍ ، الوهم يلاحقهن هُنَا و هُنَاك..

و كَانت تَقول مُعَلمة اللاهُوت في المدرسَة :

بُنياتي لا تَدعن مَجال للشيطَان كَي ينَزع منكنَّ الحَقيقة و يُغَير الوَاجهة التي أبدعَ الربُ صُنعهَا ..

طَبعاً لا أُؤمنُ بالشَيطَان و لا بوجودهِ ، لأنَني بَعد أن دَخلت عَالم الإنَاث و مُنزلقاتهِ الوَهمية لم أرى شَيطاناً كَالفتَيات اللواتي حَوالي ..

الشَيطان أنتَ إنَ خدعتَ من حَولكَ و أخفَيتَ شَيئاً قَد مَنحتهُ الطَبيعة لكَ ..

صَديقتي التي تَقرأني :

أنَا جانيت ، ابنة العشرينَ يُتماً ..

لا أعلم من هُم أهَلي ، أبي ، أُمي ، إخوتي إن كانَ لي إخوة..

آخر محطة لي كَانت هُنَا في الغُرفة رَقم وَاحد من نُزلاء مَرضَى السَرطَان ، الغُرفة جَميلة مطلية بلونِ الموت ، كُل شَيءٍ بهَا باهت لا يدلُ على بصيص أملٍ للحياة ، الستَائر مرخاه للصمتِ ، لا ليسَ للصَمت بل لعزفِ جهَازِ مقياسِ النبضِ و أصَواتِ طَرقِ الأحذية التي تَجوبُ المَمراتِ

خَارج الغُرفة ، إنهُ فَصل الشتَاء ، فَصلِ الدُموع و الوجع و الرحيل ..

الرَحيل جميل إن كَانَ من يَحملُ حَقائبها مُقتنع بالرحيل ، كُل الذينَ وقفوا في مَحطاتِ الوداعِ أصحاب الملامح المُتجمدة ، الذينَ يُمسكونَ مظَلاتٍ ليتقيهم مَطرَ السَكَاكِ الحَديدية ، الذينَ طووا بينَ مَلابسهم ذكرياتٍ جَميلة و موائد شهية و وجوه أنيقة ، و أوراق و رسائل تشي عن الحُب .. إلى أينَ أنتُم ذَاهبون !! ..

احملوني معكُم حيثُ الفناء ، حَيثُ القطارات التي تَذهب و لا تَعود ، حَيثُ فسحةَ رَبيعٍ ينبتُ بين أعشابه زهرةَ البَابُونج..

لا تَتركوني هُنَا ، لا تَجعلوني أنزفُ وجعاً بعد وجع ..

إطلالة جمَيلة من سريري المجاور للنَافذة المُطلة على محطةِ القطَار الكَبيرة ، و على ساحة المَشفى الصَغيرة التي تَتخللهَا حديقة أنيقة قَد تَساقطَ منهَا ورق الشجرِ ، أنَا أحد أوراق الشجرِ ، سَقطتُ من غُصنِ أمي قبل أن أراهَا ، لي حَنيناً لصدرهَا و رائحتهَا ..

ما هي رائحتهَا !! ..

رُبمَا الغردينيا ، أو رائحة زَهرِ اللوز في بداياتِ الربيع ، أو خُبز ريفي مُحمص ، أو رائَحةِ فراءِ قطة !! ..

أقيسُ الهَواء هُنَا بعينيّ تكادُ تذبُل و لا تَقوى على النُهوض ، و أكرهُ جميع الروائح في هذا المكان الذي أراهُ محفلاً للأمواتِ ، أشَتهي كُلَ شيءٍ كَفطيرةَ التُفاحِ و كَعكِ الفستُق و كوباً من الكَابتشينو ، و لكَن ما إن وضعت أمامي هَذهِ الأشَياء .. حَتى كَرهتُهَا و رُبما تَقيأتُ رُغماً عني ..

يُعوضني الطَبيب بكيس من السريون المُغذي ، أرى النُقط كيف تَتهافت نُقطة وراء نُقطة ..

كَأنهُ بداية غَرقٍ ، و صراعٍ بينَ الحَياة و المَوت ، أنا أكذب يا عَزيزتي .. أنا لسَتُ قوية أبداً ..

لَقد سَألني الطَبيب ذَاتَ وَجعٍ :

هَل وَقعتِ في الحُب آنِفاً !؟ ..

كَان الطَبيب مَشغولاً في تَجهيز عَملية تَنظير المَعدة ، و قَد أمسكَ بَعضلة ساقي أرادَ وقتهَا أن يقيس لي دَقات قلبي و ضَغط الدَم .. رُبمَا لم يكُن السُؤال في مَكَانهِ و لَيس في هَذا الوقت ، كَثير من الأسئلة طَاردَتني حينهَا ، لم أكُن مُدركة مَا بهِ من مُصيبة ، و لكن ليس هُنَا مَكان لفردِ العَضلاتِ أبداً ، سَوفَ أُجيبهُ :

ـ أنتُم الرِجَال تَتوقعُونَ بأنَنا نَقع ، و لَكن يَجب أن تُدقق بكلمة تَقعون ، مع أنَنَا جَميعاً نَعلم من يَقع في الحُب أولاً ، و أمَا الجَواب فَنعم هُنَاكَ من وَقع في حُبي ، مع أنَنَي كُنتُ رَافضَة ..

لا أعلم كيف تركتُ لقبي مقودَ السَير وقتهَا ، جَعلتهُ يَهوي إلى حَافَةِ ذَاكَ الفتى من غَير إذنٍ مني ، أنتِ أنثى فيكِ من العَواطف و المشَاعر مَا يَهزُ أركَان هَذهِ الأرض بأكملهَا ..

كَانت في أول سَنة دراسية في الجامعة ، كُنتُ أتوقع حُدوث شَيء ، أو لعَلي أنتظرُ شَيء ..

دائماً أنتَظر ، أنتَظر الليل حتى يرحل و النهَار حَتى يَزول و السَنة حتى تَذوب و اليَوم حتى يَنتهي ..

دَائمةَ الانتظار ..

كَانت تُعجبني مَحطاتِ القطَاراتِ و الحَافلات ، أُشَاهد وُجوه الناسِ و أَتَتجسسُ على مَلامحهم ، لَقد اكتَشفتُ عدةَ أشَياء لهَا صلة بالوَقتِ و الأيامِ و العُطلِ الرَسمِية و الوَطنية ، أحَببتُ ذَاكَ الاكتشَاف فيهِ عُمق في المُجريات و الأحدَاث ، كَانَت الزَاوية الضَيقة في مَحَطةِ الحَافِلة شَاغرة بشَابٍ وسيم و لَكنهُ رَث الهيئة و المنظرِ ، كَان يختلي بنفسهِ في تلكَ الزَاوية يُقلبُ كتاباً بَينَ يديه و بينهُ و بَينَ السَجائِر قَرابة وَطيدة ، كَانت سِيجارتهُ لا تُفارقهُ و أمَا أضَافرَ أصَابعهُ كَانت تَحتهَا طَبقة من القَاذورات المُقرفة ..

و لكنهُ كانَ مُخَالِفاً لهَذهِ البَشرية بِبنطالهِ المُمزق و الوشوم المرسُومة على رقبتهِ باللغُة اليابانية و سلسَلة نَاعمة أُسدلت بعَفوية صَامته و المُثير للانتباه بأنَ كلبهُ ذُو الشَعر الطَويل الأبَيض ، كانَ الكَلبُ لَطيفاً جِداً يجلسُ بجانهِ بَعفوية و حنانٍ مُكابرٍ و شعرهُ الأبيض المُلفت للانتباه كَان يشَدُ نَظرات

العَالم إليه ، و لكنَ الكَلب غَير مُبالي بِنظراتِ الناسِ لهُ كَصاحبهِ تمَاماً ..

كُل يَوم على الحَالة نَفسهَا ، و كَان الشَابُ لا يتغيب عَن الذَهاب إلى عَملهِ أو رُبما إلى دراستهِ ، أيُعقل بأنهُ لا زالَ يدرُس ، و لما هذهِ الكُتب التي لا يتفلت يدهُ أبداً ، و مَاذا يَقرأ يا تُرى ، كُنتُ أُلاحظُ بِأنهُ يقرأُ الروايات الألمانية ..

دُخَان و كَلب و كتاب و شَابٍ لا يَظهرُ عَليهِ بأنهُ مُثقف ، لَقد كُنتُ أعتقد بِأنَ الذي يُحبُونَ القراءة هَيئاتهم أنيقة جميلة يَهتمونَ بأنفُسهم و أشكالهم و لعلهُم غُرباء بعضَ الشَيء و لَكنهُم جَميلون ، و لَكن كَان صَاحب الكَلبِ وَسيماً صَاحب هَيئة رَثة جداً ..

أعجبني تَمردُهُ على المُجتمع أصَحاب الأقنعة المُلونَة الذينَ تراهُم كُلَ دقيقة بوجه ، أعجبتني ثقتهُ بنفسهِ ، كَان عندي دَافع كَبير بأن أُصَافحهُ و أتعرف عَليهِ، و لَكن لمَا نَحنُ الاناث صاحبات كبرياء و نُريد للذُكورِ أن يأتونا حَبواً و لو على لسَانهم !!

كُنَا كُل صَباح نأخذُ نَفسَ الاتجَاه خمسَ مَحطاتٍ بالأُوبان عشرين دَقيقة حَتى نَصل و لكن كَانت الاتجاهَات تُفرقُنَا هُو يأخُذ الاتجَاه الأيمن و أنَا آخُذ الايسر ..

ضَحكتُ كَثيراً عندما لاحَظَتُ بأنَ اتجاهي يَذهب على اليسَار ..

لَعلَ دماغِي يسَاري بسياسَة و بكَافةِ المساراتِ الفكرية و حتى الحياتِية .. في أحد ايام الجُمعة قَبل عُطلة نهَاية الأسبوع بيومٍ واحد أخذتُ مكاناً في القطَار و ركبَ بَعدي لم أنتبه إليهِ ، أتى بكلبهِ و جَلس مُواجهاً لي و أما كَلبهُ صعدَ بجانبي و وضَع رأسهُ على فَخذ قَدمي ..

و أغلقَ الكَلبُ عينهُ كَأنما شَعر براحَة بحنانٍ مُنصهرٍ من عُروقِ جسَدي ، بادرتُه بابتسَامة بسيطة و لم أُلاحظ بأنَ صَاحبهُ يُراقبُني خَلف كتابه ، لَقد مَددتُ أصَابعي لمُلامسَة شَعره ، راحَ الكلبُ يغفوا كأنما وضَعتُ لهُ غطاءً لينَام بجانبي على سَريري ، نَطقَ الوَسيم :

ـ أنا أليكس من برلين ..

مَد كفهُ أراد مُصَافحتي ، لعَلهَا فُرصتي لاكتشَاف خَرائط الوَشمِ على وجههِ ، لعلهُ مفتاح لأفتَح قَلبهُ و رُوحهُ و منزلهُ و خَزائنهُ و رُفوفهُ و دَواليب مَخابئهُ السرية و أوراقهُ المَخفية و مستنداته الوهمية و الفَراغ بين أحرُف اسمه الغريب بجمالهِ ..

مَددتُ كَفي :

ـ أنَا جانيت من مَيتم فيينَا ..

ابتسَم كَالثعلب ، ابتسمتُ كَبنات آوى التي تَقتَاتُ على الجُثث ، فَأنَا التي لم أسَمح لقانُونِ السَماء أن يسير على طَريق حياتي فَكيفَ بابتسَامة الثعالب !! ..

كَشَفَ الثَعلب الوسيم بأنَ عَضلاتِ وَجهي أقوى من تَمرُد مكره ، فَانَحسر و انخسأَ إلى الوَراء :

ـ عَفواً هل تَعملين في المَيتم !! أنا آسف على تَطفُلي !؟ ..

لَقد أهملتهُ قَليلاً و أنَا أُداعب الكلب و أُمررُ أصَابعي على شَعرهِ الرَائع :

ـ لا صَديقي !! ، أنَا يتيمة كَبقَيةِ الأيتَامِ الذينَ على وَجهِ هَذهِ الأرض !! ..

فَتحَ عَينهُ مُدهشاً رُبمَا لصراحتي :

ـ كُلنَا ضَحايا عَائلات و ضَحايا حُب !! ..

نَعم هَذا صَحيح كُلنَا ضَحَايا ..

ضَحايا حُب و أسرارٍ و أفكَارٍ و أهواء و خُرافات و عَقَائدِ ، نَبقى نُدافع و نُنُافح عن أهوائنا حتى المَمات ..

فَقط لِيُقال عَنَكَ بأنَك صَاحب رَأي مُعَين ، و من يَهتُم لرأيكَ يا تُرى ! ، لا أَحد سواكَ ، تَعيشُ مَخدوعاً و تَموتُ مَخدوعَاً و إن بُعثتَ مَخدوعاً فَقد زَال ذَاكَ الوَهم الذي يقول هُنَاكَ حَياة بعدَ الموت ..

لا عَلينَا من الأوهَام ..

نَحنُ ضَحَايا أَنفُسنَا ، فَلا نَشعرُ بذاكَ الشَخص الذي في دَاخلنَا إلا من بَعدِ أن يقَع الألم ، و تَعيشُ تَحت الجلد أيامٍ و سنيناً ، و أعَوامٍ عجَاف تُركَل و تُركَل و تُركَل حَتى يَستوى بكَ الألم و تَنضَجُ معهُ و تَعتادَ عَليهِ ..

ـ نَعم أنَا يَتيمة ..

شَهَقَ كَأنهُ يَعرفني ، كَأنهُ جُزءً مني ، من ذَاتي و ذَاتهِ ، كَأنَ هُنَاكَ بَيت كَانَ يَجمعنا يُحيط يُتمنَا :

ـ مَا هَذهِ الصدفة !! ..

لا أعَلم مَا الذي كَانَ يَهذي في عَقل الوَسيم !! :

ـ أَيةَ صُدفة !! ..

أعَادَ من هَيئةِ جَلستهِ :

ـ و أَنَا أيضاً عشتُ في مَيتمٍ مثَلكِ .. !!

كُنتُ أُريد أن أُدافعَ عن يُتمي ، كَالتي تُزيحَ جناية عن تلكَ الأَيام التي التهمت وحدتي :

ـ من المُؤكَد بأنكَ لم تُطق مزاج الأيتام هُناك ! ، و لم تَتحمل قصصهُم و حكَاياتهُم و أحلامهُم !! ..

ابَتسم الوَسيم بعنجهية :

ـ رُبمَا ..

لم تُعجبني إجابتهُ أبداً :

ـ هَل هذه إجابة !! ..

رَاح ينظُر إلى النافذة كان القطار يسير بسُرعة كسقوطِ السيف على عنق المظلوم :

ـ أنا يتيم مثلك صديقتي ..

وَقفتُ أُراقبَ عينيهِ ، أُفتشُ عن ذَاتي ، عن تلكَ الطفلة العنِيدة التي كَانت تَتَشَاجر مع المُعَلمات و المُربيات و حتى مع الراهَبات ، كانت اللمعة فيهما خَافتة جداً ، و نَظراتهُ

صَلبة جداً ، أردتُ الاقتراب إليهِ ، اردتُ أن أحتضنهُ ، و أُمررُ أصَبعي على شَعر رأسهِ ، و أنَامُ بجواره مدى الحَياة ، هي لَيسَ حَالة حُب كَمَا يَعتقد البَعض أو كَما يظُن !! ، إنهَا حَالة يُتم لا يَعرفُ مَدَاهَا سوانَا نَحنُ الفارغونَ من دفء المنَازل العَامرة بضَجيج العَائلة ، و لكنَهُ كَان أشجع مني بكثير ..

اقترب و اقترب ، كُنتُ أدورُ في مكاني و كُل شيءٍ يَدورُ حَولي ، و لا ينطقُ في تلكَ اللحَظة سوى عَقلي يَقولُ لي بكُلِ هَمسٍ : أُثبتِي أثبتِي عَزيزتي أنتِ قوية جداً ..

وَصَلت رَائحة عطره و يُتمه تَفوح و تَفوح كلما زادَ في الاقتراب ، أعادتني إلى رَائحةَ المَاضي الممَراتِ البَاهية و الستائر الرمادية التي تُغَطي النوافذ القديمة ، و غُرفِ النَومِ التي تَطوي فيهن اليَتيمات آخر أحلامهنَّ ..

و أنَا هي .. تلكَ الطفلة التي تَنضُجُ بؤساً يوماً بعدَ يوم ، و مَا إن وَصَلت أنفاس زفيره على عُنُقي حَتى وقع قَلبي من صدري ..

يا للهَول ..

رُبمَا هَذا خَمر ، أسَكرني ، أو رُبمَا هَذا فَارس راقصَنِي حَتى دَوخني ، و التَصق صَدري بصدَرهِ حَتى شَعرتُ بأنَنَي انتَقلتُ إلى كَوكَبٍ آخَرٍ ..

كَانَ يَعرفُ مَا بنَا من نَقصٍ ، من راحةِ حُضنٍ ، من عُمقِ دفء ، و كُنتُ أعلم مَا به من خَارب و دَمَارٍ عَاطفي و حسي ، كُلنَا يفقد الحس عندما تَخلو هَذهِ الحَياة من أبَسطِ سَعادَتكَ ، كالحُبِ و الأمانِ و العَائلة ..

و لكَن مَا إن لامسَ صَدري صَدرهُ حَتى ضَمني بحرارة لا تُوصَف ..

لم أقاوم تلكَ اللحَظة أبداً ، كَأنهُ أسرني بين قَفصِ صدرهِ ، كَأن لحمي قد تَداخَلَ بلحمهِ ، كَأنَ بُخارَ القطار تَداخَل معَ النُور ، و لكن تَوقفَ القطَافُ في أحَدِ المَحطات ، و لا زَالَ المَشهد ثَابتٍ في مكَانهِ ..

تَباً للحَياة أمَامَ لَحظة وَاحدة من الراحَة ، ضَمة وَاحدة من الشَغفِ ، تَسَرُبٍ وَاحدٍ من العِطر ..

ـ اشتَقتُ لكِ !! ..

هَكذا و من غَير أيةَ مُقدمَات قَالها غَيرَ آبهٍ لمَا يَتحدث ! ، كُنتُ أعلم مَا معنى هَذهِ الكَلمة ، و لكن عادَ لي عَقلي فَجأة :

ـ هَل تَتَحدث مَعي !! ..

حُلت عُقدةَ ضَمتنَا ، و فُكت جَميع الشيفرات في تَوقيتٍ لَيسَ لنا ، و لكَنَ القِطَار قَد قَطع بِنَا مَحطاتٍ عِدة بَعد مَحطتنَا .. ضَحكنا كَثيراً وَقتها ، كَانت أولُ مَرة في حَياتي أضَحك بهَذهِ الطَريقة و بَهذَا المزاج الذِي أفقدنا السَيطرة على وَقتنا :

ـ كُنتُ أتَحدث مع قَلبكِ يا صَديقتي ..

رُبمَا لا يَعلم بأنَ قَلبي قَد جَف و نُزع منذُ الصغَر ، و لكن المُجامَلة في حَضَرة الأشَخاص الذِينَ يُشبهُوننَا فَضَيلة :

ـ و كَيفَ عَرفت بأنَ هَذا القلب من اشتَقت إليهِ :

ـ من رَائحةِ اليُتم ، و شدةَ الحَياة ، و قَسوة البَشَر الذين يُحِيطوننَا ، أنتِ حَقاً شَبهي بكُلِ شَيء إلا شَيء وَاحد فقط!!..

ـ و مَا هُوَ !؟ ..

ـ بصدقِ عينكِ !! ..

يا إلهي ما هذا ! ، رُبمَا هَذا الشَاب مَجنون و أنَا لا أعلم ، أيُعَقل بأنَني تَعرفتُ على شَخصٍ فَقد عَقلهُ ! ، أو مَاذا ؟ ..

هَذهِ أول مَرة أكتَشَفُ بِأنَ العُيون تَتحرى الصدق أو تَتجسس على الكَذب ، لَقد سَخرتُ جداً من هذهِ التراجيدية الغَير مَنطقية ، لأنَني دَائمَا أَقيسُ الأمور في ميزان العَقل و المنَطق ..

لَقد قَالت لي ذَاتَ صَباح أُستَاذَة الفَلسَفة قَبل دُخولي إلى الفَصل الدراسي في أَيام النحسِ و الْيتم :

ـ عَزِيزَتي جانيت ، إنَ الفَلسفة بعيدةَ الأمد ، و لَيسَ لهَا حُدود أبدَاً و لكن في بَعضِ الأَحيان تَأخُذُ بِعَقل العَاقل إلى الجُنون ، نَعم سَوف نُطلقُ على ذَاكَ الذي تركَ للعَقل زمام الأمور بوصَفِ مَجنون ، و لكنُهُ في الحقَيقة لَيسَ مجنوناً ، و إنمَا نَحنُ لم نَستَوعب مَساحة فكره الذي سَيدمر جَميع ما بنَيناهُ من خُرافاتٍ و آراء ..

ـ حَسنَاً ! ، و مَا بوسعنا أن نَفعل في هَذهِ الحَالة !؟ ..

إبتسمت المُعلمة وقتهَا :

ـ عَزيزَتي جانيت ، هُنَاك شَيء أسمهُ عَواطف و مَشَاعر ، الأحمق من يستعملها في تدمير العلم و الكُون بِأوهَامهِ و مُعتقداتهِ ، و السعيد الذي وَضعهَا في صُنعِ الخَير و أمرهَا في إيجاد الحُب ! ..

لَقد استَفزتني كَلمة الحُب :

ـ الحُب !؟ ..

ـ نَعم عَزيزتي الحُب ، سَوف يَصلُ بك الزَمن إلى أن تَعشقي رَجُلاً ، أو رُبمَا مكاناً ، أو زماناً ، فنَحنُ كما تَعلمين ضحايا أنفُسنَا و غَيرنَا و الأمكنة و الأزمنة ، فَلقد دَخلنَا إلى مُعتركِ الحَياة و لا نعلم إن كُنَا سَننجو ، تَباً للحَياة يا عَزيزتي ..

ـ و مَا هُو المَطلوب مني ! ..

ـ جانيت بُنيتي ، اسمعي و ضعي هَذا الكَلام حَلقَة في أذُنَيكِ ، إن ارتَطم بكِ الحُبُ يوماً ، فَعليكِ أن تَكوني بَين و بَين كُل شَيء ، بَينَ النَومِ و اليقظَة ، أعَطي عَقلكِ و مَشاعَركِ الجُرعَة التي تُريدين و اكتَفي بعد ذَلكَ ، و لا تَتعلقي لأنَ

التعلق بالأشَخاص و الأمكَنة و الأزمنة دَاء يَصعُب على العَاشق تَركهُا ..

و أنَا الآن واقفة بَين حَرفين للانهيار الغير مرئي ، عُدتُ بذاكرتي إلى مُعلمتي المظلة في مادَة الفَلسَفة ، كُلَّ شَيء يَقول لي في دَاخَلي :

تَوقفي عَزيزتي جانيت .. لا تنَخدعي ..

و لَكن هُنَاك صَوت من بَعيد كبجَعة بَيضَاء تُحلقُ شَيئاً فَشيئاً يقول لي : جانيت إنهُ الحُب أتاكِ بكُلِ وَسَائل الشَوقِ ، أحضُنيهِ و احمليهِ بكفِ الرعَاية ، و حَلقي معهُ إلى اللا مُنتَهى ..

أنَا في اللا مُنتَهى ..

ـ حسنَاً صديقي أنَا عليَّ العَودة إلى مَحطة الجَامعة شُكراً لكَ كَانت فُرصَة سعيدة ، و عندكَ كَلب لَطيف جداً ..

شَعرتُ بأنَ قَلبه قَد تَحطم كَلوح زُجاج ، قُطعَ خيطَ سَنارته التي كَانَ يُحِيكُ أول مَشَهد لقاء ، و جَعلتُ من اللا مُنتهَى سَراب ، هَكذا عندما تَفقد الظنَ بِالحُب يَحدُث معك كمَا يحَدُث بالذي أضاعَ خرائطَهُ و قَافلتهُ في الصحراء ، و

رمتهُ العَواصفُ بينَ كُثبانِ الدَهشَة ، أشَفقتُ على فُقدانِ لَمعانِ البَريقِ الدَاكن على سَطحِ بَياضِ عَينَيهِ ، لا أعلم ما الذي أوقَفني وَقتها ، رُبمَا أمسَكَ بَيدي ، في الحَقيقة كُنتُ مُندهشة جداً ..

ـ هَل نَتناول الافطَار سوية !! ..

تَراكمَت الأفكَار فوق قَلبي لا فَوق عَقلي ، كَانَ العَقلُ مُتوقف هُنَا و في مَحل خَبر كانَ .. آه يا خَبر كَان ، لو تَعرف مَا الذي كَان !! ..

ـ و ما هُو المُقَابل حتى تدعوني إلى الافطَار !! ..

كُنتُ وقحَة جداً ، و لا أعلم من أين أحَضرت هَذهِ القَسوة !:

ـ أن نَكونَ أصدقاء !! ..

زَادة حدة القسوة وقتها لأنَني أشدُ حَماقة :

ـ و هَل تَعتقد بأن هُنَاك صداقات بينَ شابٍ و شابة لم يعرفوا بعضهُم سوى دَقائق !! ..

كَان ذَكياً جداً :

ـ نَعم هُنَاك صداقات تتطور ، و هُنَاكَ صَداقات تَنهدم في لَحظة ..

كُنتُ أدهى منهُ :

ـ و مَا هُو مَدى التَطور في الصداقات يا تُرى !! ..

و لكنهُ وقع في فخِ اعتقادي و في ظَنه بأنهُ فَاز و نَجى :

ـ و ما بَعد الصدَاقة سوى الحُب !! ..

نَسينا القطار يسير نَحو المَجهُول ، ظناً منا بأنَنَا سَوفَ نَصلُ إلى نُقطَة نَخرجُ من حوارِ المشَاعر و المنَطقِ :

ـ ضَرباً من الجُنون أن تَمنعي من أُعجب بكِ خَارج إطَارِ الصَداقة ..

كَانَ دَاهية :

ـ هَذا صَحيح ، و لَكن سَوف أكونُ أشَدُ جُنوناً عندما أفقد السَيطرة على مَشَاعري و أنجرف إلى مَوعدٍ لا أعلم إلى أين أنا ذَاهبة ..

هَا هَا هَا .. لَقد ضَحكَ كثيراً حَتى شَهادَ الغَضَب بَينَ عَينَي :

ـ صَديقتي اختاري المكَانَ الذي يُعجُبكِ ..

نعم إنهُ ذَكي ، و أنَا غَبية و مُكَابرَة و تَافهة ، لم أُكن أعلم من أَين أتيتُ بهَذا الكَم الهَائِل من اللؤم و القَسوة :

اختَاري ..

أمضَيتُ حَياتي رهن اختيار الآخرين ، كُلَ شيء مُفصلٍ على حَسبِ حُبهم و بُغضهم ، على مَقاسِ أفكارهم بخَيرِهِ و شَرِهِ ، على رَغباتِ مَذاقهم بحلوه و مُرِهِ ..

لأنَكِ أُنثَى أنتِ مَصدر سَعادة و تَعاسَةِ غَيركِ ، فَكَيفَ لو كُنتِ أُنثَى قد نَضجَ معكِ اليُتمُ دَهراً ، لا شَيء هُنَاكَ مَا يَدعو إلى الانسحَاب ، و من أجل من !! ..

من أجلكِ يا تُرى ؟ ..

لا يا عَزيزتي أنتِ سَارية مَنقُوشٌ عَلى جِدارهَا :

أنتِ أُنثى الشَهوات و الأسَرة الدَافئة ..

و لكَن مَهما ابتَلعت من قوة كَونية ، سَوفَ يهدُمُكِ الحُبُ في حالةِ لهَفة ، و تَهبُطِينَ في مُواجَهةِ أيةَ زلزالٍ عَاطفي قصدكِ بعنفوانكِ ..

نَصيحةَ العَقل بألفِ حربٍ من حُروبِ العشق ..

اختاري المكَانَ ..

الزمَانُ في قَبضَتهِ الآن ، إنهُ رَجُلَ اللحَظة ، و قَد تَسَاوَيتُم في أولِ جَولة من اصطدامِ الصدفة ، إنهُ ذَاكَ الوَسيم الذي

تَتجسسينَ عليهِ في كُلِ صَباح ، تُراقبينَ طَلاسمَ وشمهِ على عُنقهِ ، كَلماتٍ بأحرُفٍ يابَانية مُلقاة على جَسَدٍ يَتيم من جُذورٍ ألمانية ، حُروفٍ مُكابرة أكبر من هَذا العَالم الأحمق ، تَلتَصقُ تَحتَ جلده بلا أيةَ حَياء ..

كَلماتٍ أحَيت فيهِ الوَسَامة ، مع أنَ الجمَيل لا يَحتَاج تَداخُلَ الضوء ليُتممهُ ، و لكن لا مَفَر من وَشَمٍ اتخذ من الجَسدِ مَسكناً ، كُنتُ دَائماً على قناعة تَامة بأنَ الوَشَم الذي يَختَرقُ أيَةَ جَسَدٍ كَتفَاصيل المَاضي تَمَاماً ، تَتَحرشُ بالقلبِ مُتَقصدة التَغلغُلَ فيهِ بلا أيةَ هَوية ، لأنَ صَاحبهُا يُريد ..

نَعم إنهُ يُريد أن يُريد ..

يُريد أن يُخلد كُل التَفاصيل إلى قَلبهِ ، يَعيشُ معها ، و تَسكُنَ فيهِ ، تَأتيهِ على حَينِ غَرة و تُدغَدغ سُكونهُ ، و تُخرجهُ عن طَورهِ ، و تَجعلَ منهُ كُتلة من جُنونٍ ، و شُعلة من تَهورٍ ، إنهُ المَاضي الذي لا مَفرَ منهُ ..

نعم المَاضِي الذِي المُعلق على الوجوهِ الشَاحِبة ، التي تُريد أن تَأخُذَ مَوقعَ الرُعب ، و القُلوب المُتسلطة ، لأنهَا في الحَقيقة هيَ ضَعيفة ، لأنها في الحَقيقة هيَ ضَعيفة و هَشَة

جداً و جزيلاً ، تُريد أن تُرمم كَسرهَا و هَشَاشتها على حسابِ غَيرهَا ..

كالحقدِ تماماً ، كَوجوه المُعلمات و المُربيات و الرَاهبات المُتسلطَات في المَيتم التَعيس ، تَمَاماً كَالزُعماءِ الذِين جَعلوا من الهَيمنة و الرَهبة على شُعوبِهم الضَعيفة مَطية للوصولِ إلى السُلطة و إخراسِ الشَعبِ المكسورِ و جَعلهِ كَقطيعِ الغنَمِ يَسير خَلفَ مَسيرة فَسادهِ ..

إذاً اختاري المَكان الذي سَيبدأُ مَعكِ أول جَولة من جَولاتِ التَعارُفِ ، يُقال بِأنَ الأمكنة التي حَدثَت بهِا أولُ مَشَاهد الحُبِ لا تُنسى !! ..

يا إلهي مَاذا يَجري ..

حَسناً !! ..

ـ حَسنَاً عَزيزي ، مَا رَأيُكَ أن نَجلسَ على نَهري الدانوب ، فَلقد اقتربنَا إلى الدَانوب !! ..

ابتَسمَ الثَعلب الوسيم :

ـ رَائع اختيار مُوفق ، أنَا موافق على هذا المكَان ..

لا أعلم لماذا أُلقِبهُ بِالثَعلب ، رُبمَا أرى جَميع الرجالِ ثَعالب ، لَيسَ ظُلماً ، و لكن كُل يَوم أتصَفح المَجلاتِ و الجَرائد في قسمِ الجَرائم التي تَشي بالتَحرُشِ و الاغتصابات و الكَوارث من مَا تُعانيهِ المَرأة في هَذا الكَوكب من أحداثٍ يَرتكبُهَا الرجال بحَق المَرأة ..

أصبح لدَي حقد دَفين ، عندما شَاهَدتُ دَماء تلكَ الفَتَاة بَينَ السُطورِ التي قَتلهَا حَبيبُهَا لأنهَا لم تُروض تَحتَ غطَاء شَهوتهِ ، هُنَاك في أعلى المَقال عُنوانٌ يَتَقاطَرُ دَماً شَعرتُ بأنهُ دَمي ، كَتَبَ حَكَايتَهُ شَابٌ عشرِيني كَانَ فيهِ هُوَ الجَاني و الغَزالة التي طَوت حَقيقة الحَدث تَنَامُ بسلامٍ في ثَلاجَة الموتى في العَاصمة النمساوية فيينَا ، يا لقَذارَة هذا العَالم!!..

شَعرتُ وَقتهَا بأنَ كَلبهُ ذَات الشَعر الأبَيض الطَويل ، أشَدُ وَفاءً منهُ .. هَوني على نَفسكِ يا جانيت !! ، لَيس كُل الرجَال على حَدِ سواء !! ..

كُنتُ أتمنى أن أجدَ رَجُلاً من فَصيلة الكلاب ، فيهِ من وفاءِ الكَلابِ ، لا يَخون و لا يَغدُر ، إنهَا تلكَ الرواية التي جَعلتني أتمنى أن يَكونَ لَديِّ صَديق فيهِ من وَفاءِ الكَلب ،

تلكَ التي كَتبت عن كَلبهَا الذي لم يُفارقهَا ثمَانِ سَنواتٍ و هيَ في الشَوارع تَتَجول مع المُتسولين ، كَانَ رَجُلهَا و حَبيبهَا و حَارسهَا الشَخصِي ، لم تَعش معهُ في قَصرٍ و لا في جَنةٍ ، و إنمَا الشَوارع و الأزقة البالية و خَلفَ حَاوِيات النِفايات هي من كَانت تَشهدُ على تُعسهَا ..

كَتبت فَأبكت و أدمت قَلبي ..

و حَسدتُ ذَاكَ الكَلب بوفائهِ و شَهامَتهِ و نُبلهِ ..

و من تلكَ اللحَظة و بعد أن أتممتُ قَراءة الرواية جَعلتني أُغَيرُ نَظرتي للرجالِ ، لأنَ المُتَحرشين في روايتهَا كَانوا على قَلبِ قَذارة واحِدة ..

بِتُ أسألُ ذَاتي هَل سَيكون لَديَّ كَلب يا تُرى !.. ولما لا !؟..

تَوقَفَ القطارُ في مُنتَصفِ الجسر المُعلقِ على نَهرِ الدَانوب ، كَأنَ الكَلبَ عَرفَ بِأنَنَا سَوف نُكملُ مَشَينا هُنَا ، و انَزلقت الأُمنيات هُنَاك ، تَكتُبنَا بحبرِ الصَمتِ و بخُطى الضَباب ..

ضَبابيونَ نَحنُ بِكُلِ مَا يعنيهِ اليُتمُ من قَسوة ، فَارغونَ من كُلِ شَيءٍ كَسُنبُلة شَامخة سُحقت حَباتِ القَمحِ فيهَا برداً فَخراً

، و أبَرمت الحيلة معنا صَفقةَ شَتاتٍ في بقاعِ أرضٍ ليست لنَا ..

الحُب ..

لا ليس حُباً ، إنما موعداً عابراً ..

كُل الذينَ صَادفتُهم الحياة ارتطموا بالحُب ..

و وَقعوا من علو شَاهقٍ ، و لَكن لم يُصَابوا بشيءٍ ، نَعم لم يُمسَوا بشَعرة واحدة ، و لكن قُلوبُهم دَائماً مُستنفرة تُعد لعدة لأية حَربٍ مَشَاعرية ..

نَمشي مَعاً على ضفافِ الدانوب ، لا مُوسيقى يُضَاهي أوتَار رقرقة الماءِ على سطحهِ ، إنها أبجدية الحُب الخالية من أية مُقومات تقوم انكسَارنَا ، كَيفَ سَنُرممُ ، و نَحنُ الذاكرة و المَاضي بزلازلهِ و أعَاصيرهِ ! ، لم أكن خَائفة من قُوتي وقتهَا أبداً ، فأنَا أعلم بأنني عن مئةِ رجُل ، و إنما كانَ هُنَاك خَوف غَريب لا أعرفُ من أين مصدرهُ ..

هَكذا أنَا لا أُحبُ تناولَ المُسكنات ، و إنمَا ابحثُ عن مَصدرِ الألم و الخوفِ و النسيان ..

رُبما ستقولُ لي و هل تُحبين تذكُر المَاضي !! ..

لن تَستَطيع نسَيان المَاضي ، و حتى و إن لم تتذكرهُ فَسوف يأتيكَ في صمتكَ و شَتات ذهنكَ و أنتَ تَمدُ عينيكَ من نوافذَ

القِطاراتِ و أنت تخلو بحديقة البلدة و أنتَ تُطعمُ الطُيور ..

نعم و أنت ..

أنا و أنت هُنا ..

لأن هَذا الدَانوب لنَا وَحدنا ، لخَوفنَا و يُتمنا ..

وَصَلتُ إلى مُنعطفِ النُوتَاتِ التي يَسكتُ عند فَواصلهَا الخَوف ، بأنَ مَا يَجري الآن هُوَ الخَوف من الحُب ..

لسَتُ أنَا من أقع في الحُب !! ..

تَدخَل القَلبُ يَومهَا يَشتمني و ينعتني :

يا مَغرورة ..

يا لَلهول ! .. أيُعقل أن أَكونَ مَغرورة ! ..

نَعم آنسَتي ، تَوقعي كُلَ شَيء ، و افَصلي بَين العَقلِ و القَلب و لو لَحظة ، هَذهِ الروح تَحتَاج دفء جَسدٍ آخَر و رُوحٍ أُخرى .. رُوحٍ تُحبُهَا و تَعكسُ وَهجَ حُبهَا ، هَا هُوَ يَسَيرُ بَجانبي ، يَمشي بصمتٍ ، رُبمَا يَتكلم مَعهُ قَلبهُ و يَتحاورا بين بعضهما ليصلى إلى حَتفِ ذَاكَ السُؤال :

و مَاذَا بعد ..

نَعم و مَاذَا بعد ! ، بَعدَ كُل هَذهِ المُشَاحَنَاتِ الدَاخَليةِ هُنَاكَ أشَياء كَثيرة تَبدأ بنظَرة و تنتهي شَهادة في سَبيل الموتِ حُباً إن كَانَ الحُبُ صَادقاً ..

ـ هَل تعرفي جانيت ! ..

ـ مَاذا صَديقي ؟ ..

أخذَ نَفساً عميقاً ، شَعرتُ بأنهُ أولُ مَرة يَتنَفس ، أول مَرة يشُعرُ بلذة هَذهِ الحَياة ، كَانت ابتسَامَاتهُ تُرسم على وَجههِ من غَير أن يتقَصد ، لَعلهُ وَقعَ لَعلنِي وَقعت ، لعلنا طرنَا ..

ـ كَم كُنتُ أتمنى أن لدَي صَديقة ، على مَقاسِ يُتمي ، لا تُعيرني بكمالهَا ، بأهلهَا ، بالبشرِ الذينَ حَولهَا ، لعَل الرب استَجاب أُمنيتي ..

ـ حَقاً !؟ ..

ـ نَعم ..

أُمنيات صغيرة مُغلفة بورقِ هَذا العَالم ، مَعقودة بأشرطَةِ مَا حَولنَا من وحدة ، تَسيرُ بخُطى آمنة كَما يَسير الكَلب الذي رافق حكايتنَا مُثَقلاً بالكسلِ بجانبنَا ، كُنَا نَجرُ خَلفنَا عُلبَ

سَردين وَهمية مُفرغَة من الهَواء ، أسَمعُ قَرقعتهَا ، أسَتمتع بجَلجَلتهَا ، كُنَا سَعيدين إلى مَا بَعدَ الشَغف ..

أمَام مَقهى خَشبي وقفَت بنَا عقارَ السَيرِ :

ـ أنَا سَوفَ أشرب كَابتشينو و أنتِ ! ..

ـ و أنَا أيضَاً ..

ضَحكتُ على جانيت القديمة التي تَطلبُ بخلافِ مَا يَطلبهُ الآخَرون ، تلكَ الفتَاة التي جَعلت من المَيتم أُضحوكة بقوتهَا و عقلهَا ، ها هيَ الآن تُنزلُ راياتهَا ، و تُريحُ رماحها على جُدرانِ الهَوى ، و تَطلب الكابتشينو كما طَلبَ ذَاكَ الوَسيم ..

أوَل مَرة تُشَاهدُ وَجههَا على حَقيقتهِ ، فَارغاً من المكياج ، و ايضَاً جسدهَا لا يسطو عَليهِ عطر سوى عطرَ عرقهَا الشَفاف ..

و شَعرُهَا الذي عَقدتَهُ بشَريط حَريري أصفر ، إنهَا كَفصلِ الصَيف ، ما أتَت على حَقلٍ إلا و اصفرَ من شمسهَا ، و ها هُوَ يَنضُجُ على نَارٍ خَافتة دَافئة و جَميلة ..

و هيَ أيضاً ، لَيست أقلَ منهُ عُمقاً ، لَست أكثَر منهُ حَرارةً..

أشتعلَ فَتيلهُ بنارهَا في سَماءٍ سَودَاء ، و تناثَرا في الهواءِ الطلقِ كَحُممٍ من لحمٍ مُبرد :

ـ هذا الكَأس لكِ ، و هَذا لَي ، أمسكيهِ من فَضلكِ ..

على ما يبدو أنَ كُلَ شَيء كَان ساخناً ، اللقَاء و الكَلام و المشَي و حتى كأس الكَرتون المملوء بالكَابتشينو :

ـ حسناً ، شُكراً جزيلاً لكَ ..

هَذهِ الرائحة لن تزول من الذَاكرة أبداً ، كانت تُنحت على جدرانِ العُيونِ بكُلِ مُرونة ، و لكنَ الكَلب اللطيف يُريد أن يُقاسمُنا اللحَظة ، بدأ النُباحُ في وَجهِ الوَسيم ، أخرجَ الوسيم الطعام الخاص بالكلاب و ألقاهَا إليهِ ..

أعجَبني عَدل الوَسيم بينهُ و بين كَلبه ..

المَرفأ على ضفافِ الدانوب كان عالياً جدَاً ، رُبما كان للسُفنِ الكبيرة ، أختار العَلو ، و أعجبني الاختيار ، إذاً إنهُ يُحب العُلو في كُلِ شيء ..

في الحُبِ و الحَربِ و الكَلمات و الصَمتِ و العَواصفِ و الزلازل ، أحببتُ الفكرة ..

إنهُ حُلم ..

أن أتعثَر بالحُبِ في قطارِ القَدر ..

أو لعلهُ تَعثر بي و أنَا لا أعَلم ، كلانَا لا يعلم بأننَا على موعدٍ مع الحُبِ فَوقَ شَاهقٍ من العُلو ..

عُلو في التَمرُد الذي عانى منهُ مربيات الميتَم ، لم يَكُن لدي أيةَ وسيلة لإفراغِ طَاقتي السلبية في نظرهم و الإيجابية في نظري سوى بالتمرُد ..

ها أنا أقفُ على فَاصلٍ زمني يُدعى أنَا ..

و لعلهُ هُوَ ، و لَعلهُ القَدر ، كلانَا لا يعلم لما الوقوف ..

كذبة الإكتشاف ، سوف تعلمي بها بعد مُدة من الزمن ، حيثُ النهايات المحتومة ، بل على مقرُبة من الموت ..

من هُنَا كانت البداية ، إنهَا نعم بداية النهاية ..

أمام ذاكَ المشهد الذي حُفر على الذاكرة ، بدأ يتسَاقط شيئاً فشَيئاً ، كانت مشاهد صلبة منحوتة بالسعادة ، و لكن لم أعلم بأنَ هذهِ السعادة إلى الزوال ، إلى فراشٍ أتألم بهِ في هَذهِ اللحَظة ..

إنَ بينَ الحياة و المَوت نغفوا على وسَادة السعادة نيام ، غير آبهين للموت ، و لكنهُ كَان يتربص بنَا ظناً منا بأنَ الرب يُريد أن يختبر مقياسَ صبرنَا و تَحمُل البلاء الذي حَل بنا و بأحلامنَا ..

كُنتُ أظُن بأنَ أكبر حُلم لَدي أن أشعُر بهَذا القَلب و مَا فيهِ من حُممٍ من الحُب و العَواطف ، و ما إن أدركتُ تلكَ اللهفة حَتى أوقفتني الحياة عن البحثِ عن الأحلام ..

نعم ..

دائماً كانَ الجميع يلقبونني بالقوية ..

أين هُم الآن ليروا تلكَ القُوة !! ..

تَبخَرت القُوة في حَالة ضَعفٍ أتَتني مُقبلة نَحوَ مَرأى الدم ، لتُنهكني و تُجردني من عزيمتي و إصراري ..

هُنا تتدخل الفطرة ، و تعودي إلى نقاء العقلِ و صفائهِ ، تلجئي إلى الرَب كَي يُخلصكِ من العذاب ، و كيفَ لو كان العَذاب .....

سوفَ أسرُد لكم ما جرى معي و لكن بحاجة إلى نَفسٍ عَميق جداً قَبل البدء بالقراءة :

طَوتنا الأيام كطي الحُب للأحَلام ..

لم أُجر على الهَاوية ، أنَ علاقَتي لم تَكُن هُناك هاوية و لا حَاوية ، بل كانَ هُناك الدفء و القُبَل و العشق إلى الإشباع..

إنها قناعة يا صديقتي أن يَكونَ حُلمَكِ يعبُر قَلبَ رجلٍ واحد ، نَعم فَتى واحد فقط يُعوضَكِ عن جَميعِ تلكَ الفراغَاتِ التي تآكلت معكِ قَبل أن تَعرفيهِ و يصَلكَ على رُوحكِ ، و لكن كيفَ لوَ كَانَ هذا الشاب الذي أحكمَ الحُبُ أقفاصَهُ حولَكُمَا و جَمعُكُمَا تَحتَ ظلِ الشَغف ..

كُلَ شَيءٍ بعد أن وصلني صدقهُ كانَ يقولُ لي :

أحبيهِ بشَغف ..

و لكن لم أكُن أعلم بأنَ هُناك أجندة تَزحفُ في الخَفاء كَانت تَقترب مني ، بل كانت تَتَغلغَلُ بي ، بل كنت تجمعني بحُبي و كُرهي و بُغضي و تَقلُباتي و مزاجي ..

عَام واحد و أربعة أشهُر كُنا نُحيكُ غطاء الحُب معاً ، نَخلعُ الحياة من شفاهنا ، و نَقعُ مُرتَطمينَ بكُلِ مَوازينَ اللا مُبالاة ، و تحتكُ الأجساد و الأرواح تَحتَ فَتيل الفُصول ، بيتٌ

صغير مع كَلبٍ لَطيف نَوافذ مُضَلعة نُشاهَدُ من خلالهَا مَشاهد الأقدار التي أهدتها لنَا ..

أحَبيهِ بعدَ كُل دَقيقة و ثَانية ، و قَبل الحَياة و بَعد الحَياة ، كَان بياض العُيون مُتلاصق حد الهذيان ، و كانت القُبل تهبطُ أمام كُل محطة و قبل أية عمل و بعد النُوم و قَبل النُوم..

قال يومها باكياً :

أفنيني بحنانكِ ، أمام شاهدة قلبكِ و قبركِ ، بعدَ كُل مُعترك جناية و قَبل أية خيانة ، و أمام مرمى الأُمنيات ..

شَهقَت الرُوح على غَير عادتهَا ، أيعُقل أن يأتي الموتُ مُبكراً ، ليسلبَ منا لوننا الليلكي الذي يُصَادف عيد حُبنَا !! .

لم نَكُن نؤمن بالكنائسِ و لا بعقُود الزواجِ و لا بفسَاتين الفَرحِ و لا بأُبهةِ الحفلاتِ الصاخبة التي يأتي إليها مُنافقينَ البشرِ ، الذين جعلوا من الحُب صراعٍ للحقدِ و الحسدِ و الفرشخة ، و جعلوا من محافلهم مزاداً لعرضِ الأجسادِ و المقتنيات و الماركاتِ ، دهنُوا الوجوه بالطلاءِ و أخفوا حقيقتهم و نفاقهم ، فَيا تُعسَاً لبقيةِ البشر الذين لم يجدوا لُقمة

خُبزٍ ليسدوا بها رمَقهم ، كان القرارُ وقتها بالارتباط حسماً جداً ، لأننَا لم نكُن مُصابُونَ بعمى الحُب ، بل كُانَ الحُبُ مُصَاب بنَا ..

أمام عَظمة هذا الكَون سلمناهُ زمَامَ ارتباطنَا لعَقد لنا الكون عقد زَواجنَا ، لأننا أيتام قَدر وكّلنا السماء و الأرض مكان آبائنا ، و تركنَا للحياة أن تصنع لنَا عُرساً تَدعوا إليه الحمام و العصافير ..

و كَانَ عُرساً رَائعاً يُشَابهُ تلكَ القُبلة الأولى التي وُضعت على شفتي ، حينها انقبضَ قلبي و تسمرت رُوحي و كأنني لستُ أنا ، و لا تلكَ اليَتيمة التي قاسَت دهراً من اليُتمِ تُعاني الوحدة ، تَحتَ ذَاكَ المشهد الذي أعراني من ذاتي نَسيتُ الوحدة و اليُتم و كُل الألم ..

نَسيتُ أنني أنا ، نَسيتُ أنهُ هُو ..

نَسيتُ و يا ليتني بقيتُ على قَيد النسيان ..

بِعُروقِ النرجسِ صنعَ لي إكليلاً ، كانت الطبيعة يَومها مُتضامنة مع ذَاكَ العُرس ، لأن التلة المُطَلة على قصر الشونبرون كانت تلتقط لنا أجمل اللحظاتِ و أصَدقهَا ، لبسنَا

البياض تأهُباً لحَياة جَديدة ، حيثُ نحرقُ في نارِ اللهَفة أوراقنَا المُؤلمة ، كتبنَا على ورقة :

لا تُفلت يدي ..

أمسكَ يدي وقتهَا ، كَأنهُ شَعر بضَعفي ، كأنهُ كشفَ عن ذَاكَ الخرق الذي في قَلبي ، كَأنما نسينَا تلكَ الأيام العجاف التي لم نرى بهَا خيراً قط ..

شدَّ أصابعهُ حولَ أصابعي ، فلقد كانَ تشبك مع الحُلولِ مع الذاتِ و اللذاتِ ، و انحسر الكون خَلفَ الحب يطهو لنا حلوانَا ، يُغَطيهَا بكريمِ السكينة ، و يُجملُها بحَباتِ الفواكهِ المُجففة ..

كَانَ حَفلاً أشهدنَا عَليهِ الطَبيعة و الأرض و السَماء ، حفلاً مُعداً للحُبِ مُهيأ للدربِ ، حفلاً سُويت بهِ الأوجاع ، حتى تلاشَت الآلام و تبخَرت في حلِ غرة على سرير النشوة ..

رحلَ الليلُ من بعد أن كتبَ الظلامُ حسيسَ الأجساد على سرير الغرام دفء العشقِ ، خطَ ببقايا حبره أبجديةَ أول خُطوة أول لَمسة أول همسة أول قُبلة ، و راحَ الفتيلُ يذيبُ الشمع الأبيض بنهمٍ حَتى ذَاب الفَتيل في شمعة النور ..

انصَهرَ الظلام طاوياً معهُ سوادهُ ساحباً معهُ لحَافهُ ، تارَكاً لنَا أجسَاداً عارية ، و جُلود عالية ، و أعناقٍ مرشوقة بالقُبلِ و الحُب ..

لم أعرف هذا الانصهار سوى بين الكُتُبِ و المجلاتِ و بعضِ مَشاهد الأفلامِ التي كُنتُ أُطلقُ عليها و على من صنعها :

ما أوقحهَا من أفلام ..

لم أكُن أُؤمنُ بمَا يُسمَى الحُب ..

آتاني الحُبُ عارياً ، قد خَلعَ شرابينهُ ، و ارتدى جُنونهُ و رُحنَا مَعاً نَتبادَلُ دَورَ الغَرقِ في ذَاتِ الآخرِ حَتى غرقنَا ..

يا لها من لَيلة !! ..

طرقت الشَمسُ نورهَا على زُجاج النَوافذ ، كانَ الحُبُ نائماً و مُتعباً على وسادة واحِدة فاحت منهُ رَائحةَ أجسَادنا و العرقِ المُتلاصقِ بينَ حواجزِ جلدنَا ، تَحرشَ الضَوءُ مُخترقاً أجفانَنا ، كَانَ يَوم سبتٍ ..

لم آبه للضوءِ ، لم أُدرك النُور إلا عندمَا رأيتهُ أولَ مرة و هُوَ جالس في المحطة و بجَانبهِ كَلبهُ ننتظر معناً القطَار لَنسير إلى المجهول ..

نسيت أن أقول للمجهول :

أيُهَا المجهول اليوم أقولُ لك كم كُنتَ جميلاً و أنيقاً ، في الحقيقة كُنتُ أخافَكَ و أخافُ مدكَ و جزركَ و أحلامكَ و أحمالكَ ، أما الآن و بعد أن جئتني بهِ رجُل الوشمِ و صاحب الكلبِ اللطيف ، دعني أقولُ لكَ مُجدداً شُكراً ..

كَانت تسير مع نُورِ الشَمسِ لمَساتٍ خَافتة في ذَاكَ الصَباح ، لمسَاتٍ مَشحونة بالحنَان ، تمشي بنعومة مع خُشونة زحفهَا ، و لكن الأجفان كانت في نزاعٍ بينَ الانفلاقِ و الانغلاقِ .. كَانَ النَورُ و حَسيسَ الغير مَنطَقي الذي يَسري على عُنقي بكُل هُدوء فيه رائحة أعرفُها .. نَعم رَائحة الصباح ، رائحة أولِ لقاء ، أو دَعوة ، أولِ غفوة ..

الكابتشينو ..

ـ صباح الخير ..

كَلمات همست في أُذُني العارية من صخب هَذا الكوكب ، الآن أنا في كوكب الحُبِ ، ساندة رأسي على صدرهِ الذي توسطهُ خيطاً ناعماً من الشعر ، إنها لحظة أمان أشعرتي بأنني لم أعش يتيمة و لم أمُت يتيمة ، بل سقطت على صدرٍ أجمل من جنة الأحلام ..

لا زلتُ أعيش في بحبُوحة الحُلم ، لا أعلم من قال لي :

ـ صباح الخَير !! ..

أهُوَ الصَباح ! ، أم نور الشمس ! ، أم الحُب ! ، أم رائَحة صدرِ رجُل ! ، كُنتُ أقولُ عنهُ غريب الأطوار و أصبحتُ أقولُ لهُ أغلى ما أملك ..

هَا هَا هَا ..

ضَحكتُ من فلسفتي وقتها لأنَني لا أملكُ شيئاً في الأصل ، و حتى ثيابي التي ارتديها ليست لي ، كَانَ نهداي مُتدليتان على صدره كَبالونٍ مملوءٍ بالماءِ ، و أما صدره كان مُنتفخاً بالأعصابِ ، عُروقهُ مُنتفخَة يَجري في مَجاريهَا حرارة مَمزوجة بالألم و الحُبِ و البُعدِ و القُربِ و في آخَر فصلٍ بالأمَان ..

ـ صَباح الخَير يا حلوة ..

كَانت شَفتاهُ تَسيران على عُنقي مع نُور الشَمس مُنتعلان حذاء الحُب ، كان الجسد في وادٍ و الروحُ في وَادٍ آخَر ..

في تِلكَ الفُسحة العبثية المُتناثرة باللا وعي ، و قبل المرور فوقَ ماهيته خلعنا أفكارنا فلسفتنا عصبيتنا و حتى ظننا ..

لا ظُنون هنا على مَسرح الحُبِ ..

الأبطَال و الكُومبارس و الجمهور و أنت ، على ذَاكَ السَرير هُو أنت ، لا تَفوتُكِ فُرصَة اللهَفة و الشَغفِ هذا السيناريو لا يتكرر مرتَين يا عَزيزتي ..

كمَا أن هَذهِ الحَياة لن تأتي بكِ مرة أُخرى إلى هَذا المكان ..

ـ لَقد صَنعتُ كُوباً كبيراً من الكَابتشينو لي و لكِ ..

نعم لَقد صَنع لَنَا الحُب سَريراً واحداً يَكفي لي و لهُ و للحُبِ و السعادة و الدفء ..

ـ صَباح الخَير حَبيبي .. شُكراً لكَ ..

شَعرتُ بأن نَبرة من الدلالِ انتابتني ، و لكن الكَلب المُدلل قَطعَ تلكَ اللحَظة بالنُباح ..

هَا هَا هَا ..

ـ إنهُ جَائع عَزيزتي و يَجب أن أخرجهُ خارج المنزل كَي يَتخلص من العَشَاء اللذيذ الذي تناولهُ يوم أمس ..

لَقد احتفل معنا ذَاكَ الكَلب .. احتفل لأنَ لم نَدعو إلى حَفلنَا سَوى الأوفياء ..

طوىَ الفجرُ ضبابهُ بنُور الشَمسِ ..
و كَانَ هُنَاكَ كُوب وَاحد نَحتسي منهُ قهوتنَا ..
أنا ارتشفُ من أحد إطَاراتِ الكُوب ، و حَبيبي يَتتَبعُ المكان الذي شَربتُ منهُ قَهوتي ، ليضعَ شفَاههُ من ذَاتِ المكَان الذي وَضَعتُ شفاهي منهُ ..
عرفتُ وقتهَا بأنَ الحُب لَيسَ لهُ قواسم مشتركة بالبطرِ و الرفاهية ، و إنما الجُزئياتِ الصغيرة التي فيها صدق كثير بالحُب و الحنانِ هي التي تُوصلك على أحشاء الفؤاد ..
لأننا لم نعتد على هذه الدُفعة الهائلة من العشق و الحنان ، ارتطمت قُلوبنَا بالدهشة الهشة ، التي هي أبسط مما كُنا نظُن ، و لأننا لم نُؤسس حُبنَا على الظُنون ، بنينَا كُوخاً بأرَبعة جُدرانٍ طُوبهَا الدفء و طلائهُا الحُب ..
و راحت الأيامُ تُثبتُ لي يوماً بَعدَ يَوم بأنَني أُنثى مَحظُوظة لأن القدر أعطاني أفضَل مما أستحق ، رجُلاً جَميلاً رقيقاً سمحاً لطيفَاً ، يُقدرُ حُضوري و غيابي ، يستقبلني و يُودعُني بالقُبل ، يُدثرُني و يُعريني بالعشق ، و يهزُ قلبي و يُسكتُ نَبضي بالحنان ..

رجُل على مقاسِ الحُب فقط ، لا على مساحَةِ المُتعجرفاتِ اللواتي يَتراكضَن على أنواع الماركاتِ و أرقام الحساباتِ ..

ماذا تجني تلك الغبية بعد أن تعيش في قصرٍ يَسجنها رجُل فيهِ خلفَ جُدرانهِ ، رجُل يُشبهُ الأشَباح ، تَعيُشُ مُدة من الزمانَ و من ثُمَ تذُب مَعركة من الخلافاتِ ، لتنتهي المعركة بالمُثول في الشارع ، تُؤكلُ لحماً و من ثُم تُلقى عظماً ، و تقفُ على قَارعة الوهمِ تَصطَادُ الأحلام ..

أيةُ أحَلام تلكَ يا مَخدوعة !! ..

إنهُ الحُب الذي لا ثاني لهُ يا مجنُونة ..

الحُبُ يعيش و يعيش مَعكِ حتى النهَاية لا يغدُر و لا يخون و لا يُلقي بأحبتهِ خارج النُور ، بل خارج الإطارِ الذي تَسري بهِ المشاعر و العواطف ..

أنظروا إلى تلك الأجساد الشرهة الجائعة المتسولة حول بعضها ، كانت العلاقات قريبة إلى الفشل ، و بسببِ المطامعِ ضاعت القُلوب و لم تَعُد تُميز بين الشهوة و الحُب ، و بين القُوة و الضعف ، بعد أن عشتُ تلكَ القصَة العطرة ، عرفتُ بأن الشهوة و المال و الشغف يتبخر في لحظة

واحدة ، و كُل من حولكَ يزول ويبقى الحُب و الوفاء هُمَا حارسان القُلوب و سياجان المشاعر ..

مَرت الأيامُ تَتراقص على مُوسيقى القُبل ، و لكن كَانت مُوسيقى أُخرى تَتراقَصُ مع وجودي ، شيء خَفي داخَل أحشَائي يسحَبني إليهِ ، يقولُ لي بأنَني أنَا هُنَا ، و يَتقاذفني و يُعريني و يُجردني و يكَسوني بالدَهشَة و الدوران ..

كانت اللحظة مُثقلة بالغرق و النجاة ، و معركة في أحشائي تدور بي و أدورُ معهَا ، و أسقطُ على بلاطِ اللا وَعي مُتناسية اسمي ، و من أين أنَا ، و من أنا و حَتى من تكون أنَا ..

أنَا تلكَ اللحظة و اللمحة و الحُب المُكَابر و المُتمردة و المُتَرددة بكُل شَيء و في كُل شَيء ، إذاً من أنَا ! ..

أنَا لا شَيء أبداً ..

أفقتُ من دواري ..

من الحَلقة المُفرغة من الذَات و الملذات ..

من أُمنياتٍ طَردُتهَا مُذ أن وَجدتهُ ، كُنتُ أظَن بأنَ هَذا الكَون هُوَ الوَحيد الذي سيتَخلى عني و يُفلت يَدي .. و لا زلتُ أظَن بأنَ هُنَاكَ كَفٍ واحدة لن تُفلت يَدي ..

شَعرتُ بدمٍ يتدفَق فَوق الجلد الذي يُغَطي شراييني ، كَان دافئاً حنواناً كأول ليلة غرقتُ بها في حُبِ رَجُل ، كَأولِ قُبلة ابتلعتنِي من غَيرِ سَبب ، لم يَكُن هُنَاكَ سَبب سوى الحُب و الرَغبة بالهُدوء على صَدرٍ حَنون يفهم وجعي و لَعلَ وَجعي كَوجعَهِ ، لَعلَ خَوفي كَخوفهِ ..

أخَذتُ وَعداً على نَفسي قَبل أن أعرفهُ ، و بَعد أن عَرفتُ بأنَ هذا الكَون لا يُخيف أحداً و لا نَخافهُ إلا إذا خَالفنا قَوانينَ طَبيعتهِ ، بأن لا أخاف من أحدٍ و لا من رَأيٍ و لا من أية تفاهةٍ ..

عَرفتهُ ، أضحيتُ أسيرةَ الخوفِ ..

أخَافهُ و أخَافُ ممن حولهُ من هَواءٍ من جَمادٍ من سَماءٍ ، لم أُشعرهُ بذلكَ و لَكن حَاسة عشق وَضَعت رَاحلتهُ أمَام خيام خوفي ، و وشَت لهُ عن كُلِ شَيء و حتى عن أبسَط الأشياء..

نعم إن ملامح العشاق فاضحة ، تَفضَحنَا في وقت نُريد أن نُخفي شيئاً ، و تُهملنا في الوقت الذِي نُريد أن نَفضح أنفُسنا..

مَاذَا يَجري الآن !! ..

أيُعقَل بأنَني في غيبوبة ؟ ..

أتى صوتهُ من بعيد ، كَسحَابة مَحمومة بالمَطرِ ، تُريد أن تَضعَ حبات خيرها على صحراء قلبي ، كيف عَرف بأنَني بَحاجة إليه ، و هُوَ بحاجة إلى حُب إلى عشقٍ إلى أُمومة ..

ـ آهُ حبيبتي ، أخفتني عليكِ ..

كَانت الصُورة تَعكسُ مزيداً من الضبابِ ، كانت اللحَظة تُعطي مزيداً من المطرِ ، كُنتُ أشعُر بأنني خلف نَافذة زُجاجية أُشاهدُ المَطر يهبطُ على زُجاجِ النَافذة بغزارة :

ـ ماذا حدث ! ..

ابتسم ، كانت ابتسامتهُ مشوبة بالرُعبِ ، في عُروقِ عينَيه احمرار لا يُعرف من أينَ يَسري ، و لَكنهُ أتى من كُلِ المنَافذ و من كُلِ المَخَارج ، أتَى ليقف هُنَا ، و يَقولَ لي :

ـ أنا هُنا ..

قَالها قَبل أن تَغيب الشَمس ، كانَ يومَ عُطلة ، نهاية الأسبوع ، نهَاية الكَلمات ، بل لَعلهُ نهاية الحُب ..

كَانَ جَسدي يَتألم بشدة ..

أمسك كُوباً من الماء :

ـ اشربي حَبيبتي ..

كُنتُ أشعرُ بالعَافية عندما يُقلبني بحبيبته ، كَان نقياً جداً ، هدوؤهُ فَوق وسامته بخمس عشرة سانت متر ، هالة من التواضُع تُغَطي أول شيبة في رأسهِ ، ظننتُ بأنها شيبة الحُب و لكنني اكتشَفتُ بأنهَا شيبة الخوف ، حتى أعترفَ وقتهَا بأنَ هذهِ الشَيبة وجدت لأنَهُ يَخافُ على من كُل شَيء..

كُنتُ أشرب بروية ، كأنَهُ نَبعٌ مُتَدفق من بَين الغُيوم ، تَدخل الحُب بجُنون :

ـ لا بُدَ أن نَذهب إلى الطَبيب الآن ، فإنَ حَالتكِ غَير جيدة حبيبتي ..

أنا لا أعرف مَا الذي حدث ، كُنتُ بجانبِ الكلب ، أُفرغ لهُ طَعامهُ في إنائهِ و بَعد ذَلك لم أعُد أعي مَا يَجري حَولي :

ـ حسنَاً ، لا تقلق حبيبي أنا بحالة جيدة ..

كأنني كذبتُ عليه ، كأنهُ هُو المُصَاب بحالة من الرُعب ، كَأنهُ هُو الذَي سقط و فقد وعيهُ ، كأنهُ هُو الذي أُغمي عليهِ ، كَأنَني أنا الآن من ألعب دَور البَطلة ، و لَكنهُ في عَيني بَطل الحُب ..

ـ لن أستمعَ إلى كَلامكِ ، سوفَ آخُذكِ على الطَبيب الآن ..

لم يستمع إليَّ ، لقد أتصَل بسَيارة الإسعافِ التَابعة للصليب الأحمر ، كانت أضَواء سيارة الإسعاف تَعزفُ لَحنهَا و لكَن إلى أين ! ..

لا أعَلم ..

و أيضَاً تَداخل نُورهَا يقتحم نَوافذ المنَزلِ بألوانها الحَمراء و الزرقاء ، لماذا فعل ذلكَ :

ـ هَيَا حَبيبتي ، إنهم قادمون ..

دخلوا بعتَادهم الطبي ، قاسَ لي ضَغطي و اتزان دقاتِ القلب كان كُل شَيء يَخفقُ بشدة ، و الضغط مُنخفض جداً ..

ـ آنستي ماذا تشعُرين !! ..

ـ أشعرُ بالدوار و أرغبُ بالاستفراغ ، و لَكن معدتي فَارغة من كُلِ شَيء ..

ابتسمَ المُمرض الذي كان يسألني ، و نَظَرَ إلى أغلى ما أملك :

ـ هَل أنتَ زوجهَا ! ..

ـ نَعم دكتُور ..

ـ إذا لم يخب ظني فَإنَ ..

ـ فإنَ ماذا ! ..

ـ يَجب نَقلها إلى المَشفى حالاً و إجراء جَميع التَحاليل لهَا و بعد ذلكَ سوف تعرف كُل شَيء ..

رَأيتُ الرُعب في وَجههِ ، لم أكُن خَائفة و لكنَني كُنتُ مُتألمة جداً ، جَسدي يُؤلمني بشدة لا يتصَورهَا عَقل .. حُملتُ بحمَالة حَديد و وُضعت بعضَ الأجهزة على صدري و قلبي ، و كيس من السريون تدلى من فوقِ رأسي و خرطوم تَتقاطرُ منُه مادة لا أعرفُهَا تقتحم شَراييني بقوة الدفع و الردعِ ، و تَسيلُ ببُرودة لا تُوصَف ..

كَانت يدهُ اليُمنى مُتشابكة بيدي ، شَعرتُ بأنَ رعَشَةَ كَفهِ التي تَفوقُ بُرودة المادة المُتَداخَلة إلى شَراييني ..

ـ لا تَقلق عزيزي ..

أولُ مَرة أرى دمعة في عينهِ ، سَقطت و أسقطت هذا العالم المنُافق من بعدهَا ، و سالت مُسرعة مُرتَعشَة مُرتَجفة ، لهَا صَهيل و جَلجَلة ، لهَا مُوسيقى الكمَان ، و لَأنَني في عَاصمة المُوسيقى فلا عَزفَ لي هُنَا سوى صَفيرِ سيارة الإسعاف ..

ـ لا أُريد الذَهاب إلى المُستشفى عَزيزي !! ..

ـ لا حبيبتي يَجب أن نطمئن على حالتكِ الصحية ، و إجراء الفُحوصَاتِ اللازمة لكِ ..

لقَد صعد الكَلب معنا في السيارة ، كَانَ يُشَاهدُنَا بَعينَيهِ الجَميلتَين ، يُقلبُ مَلامَحنَا ، يَشعرُ بماهية المشهد ، يتنَفسُ شَيئاً غريباً بعد مُدة الزمنِ ، يُريد أن يَلعَق وجهي كَما يَفعل كُلَ يَوم ، و لَكنَ الدوارَ لَعقني و ألقَى بي هُنَا ..

عشرونَ دَقيقة بالضَبط ..

وَصَلت سَيارة الإسعاف إلى قسمِ الطَوارئ ، و فُتحَ البَاب و دخلَ معهُ الهَواء البَارد ، في القسم جَرى السَرير المُتنقل إلى المخبر ..

كانَ الوقت يَمشي ببُطء شديد ، و الخوف قد ظَهر على وجوهِ من حَولي من مُمَرضَين و مُمرضَات و طَبيب الطَوارئ ، سُحبَ الدمُ من يدي بثلاث عقاقير ، و أدخلوني إلى بيتِ الخَلاءِ لسَحب سَائل من البولِ ..

كَانَ الصَمتُ حَليفَ اللحظة ، يَركُلنُا بلا شَفقة و لا رَحمة ، أيُعقل أن أدخُل إلى هَذا المكَان ، و أنَا التي تَمردتُ على طُفولتي و فُتوتي ، و روضني الحُب على مَشارفِ شابٍ وسيم ..

صَافحني الضَعفُ وقتهَا ، و صَافحتهُ بعجزي ، جَلسَ الضَعفُ بجانبي يُواسيني و يبكي عَلي ، و لكنني لم أُلقي لهُ بالاً لأنَ حركة التمرد عَادت لي فَجأة ، و عُدتُ لَها مُذ أن قُلتُ في وَجهِ أقسى مُعَلمة في المَيتم برفضي و بَكلمة : لا .. مَاذا يَجري الآن ! ، فَلا و ألف لا للضعف ..

أيادي طازجة ..

مُغطاة بكفٍ بلاستيكي ..

صَامدة أمامَ قدري ، تَخرجُ من فُرنِ الصَدمة ، تَسيرُ بلا خجلٍ و لا حَياء ، تَقصدُني بمُكابرة ، تطردُ الضَعف الذي أتكأ بجانبي ، تَتَحرشُ برعشة وَجعي ، يَقفُ حبيبي على حُزنهِ ، يَتلقى السر الخَفي الذي في أوراقِ التَحاليل ، يُريد الحقيقة التي خُطت في تلكَ الأوراق ، يُريدُهَا ببياضهَا و سوادهَا ، كمَا هي و غَير نَاقصة بأية شيء ..

ـ عزيزتي جانيت ، أنتِ قوية جداً ، و لن أُخفيكِ سراً ، هناك في التَحاليل خَبرين مُهمين جداً ، سَيء و جيد ، سوفَ أبدأُ بالجيد و أتمنى من الخَبر الجيد أن يزرعَ فيكِ الأمل و يَطرد الخَبر السَيء ..

وَقعَ في قُلوبنَا هذا الكَلام المُخَضَب بالضَبابِ ، و لكن لَيسَ الآن يا عَزيزي ، نَحنُ بَحاجة لسماعِ الخَبرين :

ـ الخَبر الأول تَهانينا جانيت أنتِ حَامل بالشَهرِ الثاني ..

كَانَ خَبراً رائعاً ، تَعانقنا لخَبرِ ثمرةِ الحُبِ ، كُنَا نُريد أن نَشعُر بأنَ عَائلة و طفل يُطلق عَلينَا : بابا ماما ، لَقد تَحقَقَ

الحُلم ، و انتعشَ فينَا النَبض مرة أُخرى ، و لكن لا زَال الألم في جَسدي و لا أعرفُ مَصدرهُ ، و لم يَبتسم الطَبيب و لا المُمَرضَين لهَذا الخَبر و لا حَتى أيَةَ لمَحة من السَعادة ، لا بَل سَقطت دَمعة من عَيني إحدى المُمَرضَات ، كدتُ أن أقولَ لهَا شُكراً لدمعة الفَرحِ التي سقطت من عينَيكِ عَزيزتي ، شَعرتُ بالسُخفِ و الحماقة بعد أن عَرفتُ الخَبر الثَاني ، لأنَ الأخبار التي تَخصني كُنتُ أُصنفهَا على حَسَبِ فُصولِ السَنة ، تَدخَل الطَبيب فَزعاً من ما يَحملهُ من خَبر سَيء :

ـ عَزيزَتي جانيت ، كُل مَرض لهُ حَل ، و لو لا الأمَل لَمات النَاسُ جَميعاً قَهراً ، و لكن على مَا يبدَو أنَكِ قَوية ، و أُريد أن تُوظفي هَذهِ القُوة في هَذا الجَانب من أجل التَخلص من هَذا المَرض ..

تَدخَل الوَسِيم :

ـ دكتور و مَا هُوَ نَوع المَرض بالتَحدِيد ، هَل من المُمكن أن تُوضح لنَا أكثَر إذا سَمحت ..

أمرَ الطَبيب بكَأسٍ من المَاء :

ـ اشربي جانيت هَذا الكَأس ..

شَربتُ و لَكن كَانَ فيهِ مَرارة لم أعرف مَصدرهَا :

ـ إنَ جانيت مُصَابة بسَرطان الدَم ..

مَاذا يَجري حولي !!

أينَ أنَا ! ، من أنَا ، و من هُم ! ..

ثُقب خفي خَلفَ الكَلمَات و خَلفَ الخبر كَانَ يَسحَبني إليهِ ، يَشدني بقوة جَارفة ، كُنتُ أتشَبث بالوعي ، و لكنَ قواي خَانتني بكُلِ كَمالاتهَا و بجميع لذاتهَا ، و يااااه تلكَ الدَوامة التي تَجتذبني إليهَا بقوة ، كَانت تَغلي في فُرنِ الثَلجِ ، دَوامة و عَاصفة و زلزال قَوي جداً ..

كَانت تَهتزُ و تَبتلع كُلَ الهَواء الذي في صَدري ، و لكَنَ الهُدوء خَيمَ على جَميع حواسي ، و شَاهدتُ في هَذا الفَلم الذي مَرَ على عيني مَشَاهد من المَاضي ، إنهُ المَاضي القَريب الذي ظَننتُ بأنَني تَخلصَتُ منهُ كَصديقاتِ الغُرفة التي كُنَّ ينمن بهَا سَالي و سُوزان و صُوفيا ، شَاهدتُ المُعَلمات كَمُعلمة التاريخ و المُوسِيقى و الأدب ، و أَيضاً المُديرة و المُوجهَات و المُربيات ، و حَتى الرَاهبات كُنَ حولي يقَفنَ فوقَ رَأسي يُجردَنَني من ثَيابي و يُمسَكَ غُصنَ

شَجرة رَقيق و يَضربنَني على ثَديي و صدري و مُؤخرتي ، و أيضاً مُدرسةِ المُوسيقى تَأمرني أن أُغني للرَبِ و لأُمهِ العذراء ..

نم جيداً يا بني الذي في السَماء ..

إن أُمكَ تُحبُكَ و تُحبنَا ..

لن تَتركُنَا للوحدة و لا للجُوع ...

أنتَ النُور الذي حولَ قُلوبنَا ..

و نَحنُ أولادكَ الذِينَ على الأرض ..

نَم جيداً يا بني الذي في السمَاء ..

كُنتُ أرتَدي الثَوب الكاثوليكي و أنتعَلُ حذاء صديقتي صُوفيا ذُو الكَعب الثخين المُربع ، و أُغني و أَطرقُ بهِ على الأرض بقوة ، و أصرخُ و أبكي بشدة ، كَان جَميع من عَرفتُهم في حياتي و شاهدتُهم حولي يَنظرونَ إليَّ و يُصفقون بغضَبٍ و حُزن ، و أنا أرفع صَوتي أكثر و أكثر..

و الجميع يهتف بأعلى صَوتهِ :

غني .. غني .. غني ..

كَانَ الفُستان الذي أرتديه طويلاً إلى تَحت الرُكبة بقدرِ كَفِ التي كانت تطهو لنَا طَعام الأيتَام في ذَاكَ المكَان القَذر ، و كَانت المُربية قد عقدت بَينَ عَينيها عُقدة من الغَضبِ ، و تَصرخُ في وَجهي :

لمَاذا فُستناكِ طويل أيتُها الحمقاء !! ..

كَادت أن تَرفع يَديهَا لتَضربني و لكنَني ركلتُهَا بركُبتي على بطنهَا و وَقعت و كَانت تَتألم و تَقول :

قتلتني الوقحة ..

سحبتني إلى زاوية فيهَا نُور خفيف ، نُور لا أستَطيع أبصرهُ ، و مع كُل هَذا الوهج كَان النُورُ خفيفاً ، يَمرُ على جُفناي ، كانت ألسنة النُور تقولُ لي لا تَخافِ بُنَيتي ، أنتِ في أمَان ، و نَحنُ من أرسلتنَا السَماء لنُخرجكِ من هذا الصَخب المُتناثَر على هَذهِ الأرض ، لا تَقلقي بُنيتي ، تَدخلَ قَلبي :

- و إلى أين تُريدونَ سحبي !! ..

زَادت الأشعة فَجأة و سَارت على جسدي تَمسحُ إزرقاقَ الظُلم الذي لحق بي من هذهِ الدُنَيا ..

انفلقت الأجفانُ ..

أمَامَ طَهارة النُور ، كَان هُناك زر كذاكَ الزر الذي يُشير لسَائق الحافلة بالوقوف هُنا ، ضغطت عليهِ ، وَقفَ كُل هَذا الدَوار الذي كَان يَطوف حولي و حتى الوجوه تسمرت في زاوية لولبية تَحت قبضة صوتٍ هتف في أُذني :

ـ حمداً لله على سلامتكِ حبيبتي !! ..

وَحدهُ الذي كَان يُلقبني بحبيبتي ، لم أسألهُ يوماً من الأيام أن لقَبَ أحداً غَيري بحبيبته ! ، هل أنَا أول حبيبة لهُ ، كما هُو أول حبيب لي !! ..

ـ مَا الذي جرى حبيبي !! ..

كَانَ يُمررُ يدهُ على شعري ، و كَانت الغُرفة نَاصعة جداً ، لا زال كيس السيرون في مكانهِ تَتقاطر منهُ نُقط الفيتَامين أو رُبما نَوع آخر من المُضَادات الحَيوية ، بَدأت عيناي تَتَرصد المكَان بهدوء جداً ، أعجبتني الغُرفة لأن البياض كَساهَا من سَقفها إلى أخمصِ بلاطهَا ، كان بجانبي طاولة و عليهَا مُصَنف فيهِ أوراق بَيضَاء مُغلفة بأكياس بلاستَيكية مَكتُوب عليهَا اسمي : جانيت ..

جانيت فقط من غَير اسم ثاني ، كان اسمٌ مُؤله ، كآلهة إغريقية لا يُشركهُ معي أحد ، لا أُم و لا أب ، و لا حَتى حَبيب ، و لكن أعَجبني رَمزٌ يَجاورُ اسمي ، إنهُ قَلب من الحُب مَرسوم بقلمٍ أحمر من الحبر الذي يَكتُبُ به زوجي رسائلهُ العشقية لي مُذ أن عرفني إلى آخر لحظة هكذا :

جانيت

كانَ جميلاً بَخطِ القلبِ مَرسوم ، و لكن كَان جَسدي يَرتع بخفة ، أشعُر بأنَ هُنَاك شَيء يَنقُصُني ، شَيء فُقد مني ، شيء رفعني ثُمَّ ألقى من عُلوِ شاهق ، و ارتطمتُ في بَياض هذا السرير الأمهق ..

لا أشعُر بأنَني أنَا ، بل حُلم بدقة مُونتاج رديئة جداً ، أُحاول أن أُمعن النَظر بالكَاتب لم أجدهُ و لم أَعرفهُ و لَكن قَالت لي راهبة ذَات قُداس يوم أحدٍ إنَ الله هُو الذي كَتبَ لنَا رواياتنا!!..

أَيُعقل بأنهُ هُوَ الذي خَلقني يتيمة !

من سَيُحاسب الآلهة ! ..

لا أحد يجرؤ الجميع يخاف من الله ، يَخافون من القانون ، يخافونَ من السماء ، يخافونَ من الطَبيعة ، و حَتى يَخافونَ من أنفُسهم ..

و لكن و أنَا الآن بهذهِ الحَالة لا أشعُر بالخوف أبداً ، فَأنا أشعُر بالوجع ، ذَاكَ الوجع الذي قَالت لي عنهُ الراهبة بأنَ الله هُوَ الذي كَتبَ لنَا هذا الوَجع ..

شُكراً رباه على هذا العَطاء ..

تَشكُر لكي لا تنزل عليكَ اللعنة ، و مع أنَ اللعنة تُلاحقُك مُذ أن خرجت من بطن أُمك إلى أن ابتلعتك الأرضُ إلى بطنها فَأنت مُطالب بالشُكر لأنَ الشُكر في رحابِ اللعنة دليل على الأيمان ..

هَل رَأيتَ كُتلة من الصُوفِ المُتَشَابكة التي يَصعُبُ تَفكيكهَا ! ، نعم هَذهِ الأمور ككُتلة الصُوفِ تماماً تَبقى تَفُككك بهَا إلى أن تَشنُقَ فكركَ و تَموتُ شَهيداً على حَبلِ عُقدة من العُقد ..

أينَ الجَديد في هَذا الأمر !؟ ..

لا جَديد سوى أنَني هُنَا ، و لما أنَا هُنا يا تُرى ! :

ـ شُكراً حَبيبي ، أينَ أنَا الآن ، و لماذا كُل هَذهِ الأجهزة على صَدري و كيس هَذا السيرون مُعلق بشَراييني ! ..

و أنَا أسألهُ و أتساءل عن هذهِ التَفاصيل ، عَادت لي الذَاكرة فجأة ، لأعودَ على صياغة السُؤالِ بسؤالٍ أدق ، و لكن بابتسامة راضية بما جرى مَعي :

ـ هَل أنَا حقاً مُصَابة بمرضِ سرطَان الدَم ! ، و هل أنَا حَقاً حَامل و رُبمَا أنجبُ جنيناً جَميلاً مثلَ أبيهِ ! ، و هَل أنَا إلى هَذهِ اللحَظة على قَيدِ الحَياة أم أنهُ كَابوس سَأصحو منهُ في حَالةِ مَنحتني قُبلة على عُنقي كما تَفعل في كُلِ لَيلة !! ..

أطَرقَ الوسيم رَأسَهُ ، و بهِ من الألمِ ما لم أَذقهُ ، كُنتُ أننا من أحمل هَذا المَرض و هُوَ الذي يَتألم و يتأوهُ :

ـ حبيبتي جانيت ، يومَ أمس سقط الجنين ، و هذا لحسنِ حَظنا لأنَ هَذا المَرض رُبما سَيلحق بجنينَا ، و أمَا بالنسَبة للمَرض سَوفَ تُعَالجَينَ منهُ و سَتشَفين منهُ ، فَأنَا مُتأكد من هَذا الأمر ، فَأنتِ أقوى من أيةِ مرض على وَجهِ هَذهِ الأرض ..

لا أعرف ماذَا يَجري كَانت الدُموع تَنهمرُ على وَجهي بلا أيةَ رحمة ، و كُنتُ مُكَابرة على كُل شَيء كَعادتي ، مُكَابرة على القَدر و الحَياة و الطَبيعة و حتى على من كان لَهُ حقٌ علي بتربيتي ، و لأنَني مُكَابرة جداً و من النوعِ الثقيل كانت الابتسامة حليفي وقتهَا من أجل أن تَرجح كَفة المُكَابرة ابتسمتُ و دُموعي تنحدر كَأنَني أكذبُ على نَفسي و على الله..

لم يعرف مَاذا يُريد قَولهُ لي ، و لكنَ أصَابعهُ مُتشابكة بأصابعي ، قال لي :

ـ هَل رَأيتِ هَذهِ الأصَابع المُتشَابكة ! ..

ـ نعم ، لمَاذا لا تُجيبني على سُؤالي !؟

ـ عندما أُمسكُ بكَفكِ أشعُر باتزَان هَذا الكون و دقةَ مَسير المجرات حَول نَفسهَا و حركة الأرض حَول الشَمس و سَير الشَمس حول الأرض ، هَل تُفسري لي هَذا الشُعور ..

كَفٌ مُتشبثة بكَفي و كَفٌ تُمررُ ذُكورتهَا فوقَ شَعري ، و مع كُل هَذا الكَم الهَائل من الحُب و في مكان ليسَ مكان لتَبادُلِ

أحاديث العشق ، طَلبتُ منهُ قَلمهُ الذي كَان يَكتبُ لي رسائلهُ العشقية ..

أمدني بقلبهِ ..

أمدني بقلمهِ ، كانَ لَونهُ أحمر ، كلونِ الكَرز ..

وَكانت السَماء تُمطر بشدة ، و كَانت النافذة بَجانب السرير الذي أضَعُ عجزي عليهِ ، نافذة كَبيرة تُطلُ على السَاحة السمَائية للمَشفى ، تَتَوسَط السَاحة حديقة صَغيرة جداً مُشَبعة بالعُشبِ الأخضَر ، أمسَكتُ القَلم :

ـ حَبيبي هَل لي أن أكتُبَ وَصيتي على سعدكَ الذي كُنتَ تَحملني بهِ ! ..

شَمرَ عن سَاعدهُ باكياً ، كَانَ الحُبُ يُجففُ خدينَا بمناديل الشتَاء ، و أمدَ لي سَاعَدهُ ، حَملتُ القلم أرسُم وَصيتي ، لعلهُ يتذكَرني بعدَ الرحيل :

لا تُفلت يدي ..

هَكَذا رَسمتُهَا و كَتبتُهَا و صَنعتُهَا ، كَانَ الألمُ يخترقني من كُلِ النواحي ، ضَمني بحرارة ، و أفلتتَ منا مُهجةَ الحُلولِ طرقات الباب :

ـ هَل لي أن أدخُل ! ..

ـ نعم تفضل ! ..

إنهُ الطَبيب و معهُ لَفيف من المُمرضين و المُمرضات ،

ـ عَزيزي ، بَعد أن اتزنَ الضَغط يَجب أن نُباشر بإعطائها أول جُرعة كيميائية ، يَجب أن تَعرفي يا جانيت بأن هَذهِ الجُرعة باردة جداً عندما تَتسلل في الوريد ، و لها مُضَاعفات جانبية ، فَلا تَقلقي ، إنهَا مَسألة وَقت و ينتهي كُل شَيء ..

ـ حَسناً دكتور ..

كَانت المُمَرضة تَضع لي الأنبوب الخَاص بكيسِ الكِيماوي ، و كُنتُ ابتسم كعادتي للمَوتِ و الحَياة و للوسيم ، و بدأت أول نُقطة تَدخُل إلى جَسدي ، نُقطة قاهَرة غَبية تَتَوغلُ بي مُتَدافعة و مُدافعة عن قَانونِ هَذهِ الحَياة ، أشَارَ إليَّ ذاكَ الذي قَدمتُ لهُ قَلبي :

ـ حَبيبتي رَاقبيني منَ النَافذِة أنَا في حَديقة المَشفى .

نَزلَ إلى الحَديقة مُسرعاً ، كُنتُ أَتتبعهُ بألم ، ألم هَذا الكون و ألم اليُتم و ألم المرض ، و ما إن وَصَل إلى الحَديقة حتى خَلعَ ثَيابهُ و بدأ يَدور و يَدور و يَدور حَولَ المَطر كَعَاصفة

بَيضَاء غاضبة على القَدرِ و الحَجرِ و البَشَرِ ، نَعم كَان يدور حَولَ نَفسه و كَانت دُموعي تَسيلُ بغزارة ...

سَألتهُ بعد أن صَعد و أُفرغت الجُرعة في جَسدي :

ـ مَا الذِي صَنعكَ أن تَفعل هَذا الأمر !! ..

أعَاد تَشَابك يدَهُ بيدي :

ـ كَي أشعُر ببرودة المادة الكيميائِية التي دَخلت إلى هذا الجَسد ..

كَانَ يَعلم بأن شَعري سوف يَسقُط ، استيقظتُ بَعد أيَام من الألم و شعر رأسي قَد وقع ، و دَخلَ إليَّ برَأسٍ مَحلوق الشَعرِ مَحلوق الحاجبين و اللحية و الشَارب ، لَقد صُعقتُ من هذا المشَهد :

ـ ما الذي صَنعك بأن تَفعل مثل هذا الفعل !؟ ..

أمسَك كَفي بكفهِ :

ـ الحُب لا يَعرفُ المظاهر فَهوَ أعمى بلا شَعر و بَلا ميك آب ، فَأنا أُحب أن أكون كَما ربطني بزوجتي و حبيبتي ..

لَقد شَعرتُ بالرَاحة رُغم الوجع الذي يُزلزلُ فَرائصي ، و عَرفتُ بأنَ هَذا الوَجع إن بقي سوفَ يذقهُ غَيري ، وَضَع

رأسهُ على طرفِ السرير و غَفى الحُبُ بيننا و كَفهُ مُتشَابكة مع كَفي ، و دَخلَ الموتُ يَسحبُني إليهِ و الحُبُ نَائم بجانبي لا يعلم ما الذي يَحلُ بي ، مَرت المشَاهد السعيدة أمَامَ عَيني ، و مَررتُ بالمشَاهد التعيسة أركُلهَا ، و تَوقفَ النبضُ على شَاهدة قَبري فَي سَفحِ جَبلٍ مُطلٍ على فيينَا ، شَاهدة كُتبَ عَليهَا :

- جانيت ..

هَذا قَبر يَتيمة كَتبت على قَلبي ذَاتَ حُب :

لا تُفلت يدي .

أتمَمتُ رِواية :

لا تُفلت يَدي

في بَلَدِ الحُرِية و الدِيمُقرَاطِية : النمسا ، في عَاصِمَةِ البيانو و الكَمنجَة : فيينا ،

في مَقهى HORNIG ، في الحي السَابع ..

السَاعة : 00 : 02 ، ظُهراً بِتوقِيتِ تَسَاقط الثَلجِ على قُبور لم يعرف الحُب سِوى اسمها ..

مِن تَارِيخ : 8 / فبراير / 2017.